

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة منتوري قسنطينة
كلية الأدب و اللغات
قسم اللغة العربية و آدابها
الرقم التسلسلي:.....
الرقم:.....

بلاغة مقام القص القرآني سورة يوسف أنموذجا

بحث مكمّل لنيل شهادة الماجستير في البلاغة و شعرية الخطاب

إشراف الأستاذ الدكتور:

عمار ويس.

إعداد الطالب :

عزوز سطوف .

أعضاء لجنة المناقشة:

رئيسا	جامعة منتوري قسنطينة	الدكتور: الربيعي بن سلامة
مشرفا ومقررا	جامعة منتوري قسنطينة	الدكتور: عمار ويس
عضوا مناقشا	جامعة منتوري قسنطينة	الدكتور: دياب قديد
عضوا مناقشا	جامعة منتوري قسنطينة	الدكتور: رشيد قريع

السنة الجامعية 2009 – 2010

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر و عرفان

قالوا : من علمني حرفا صرت له عبدا
فما عساني أن أقول لمن علمني منهجية
كاملة في البحث ومنحني من وقته النفيس
رغم ارتباطاته الكبيرة و مسؤولياته
الجسيمة
فلهذا العلم والأستاذ كامل شكري وامتناني
وعرفاني

ونفس الشكر والامتنان موصول للجنة
المناقشة التي تحمل أعضاؤها جهد قراءة بحثي
ومنحوني من وقتهم الغالي.

المقدمة:

لقد نشأت البلاغة العربية ابتداءً للتدليل على إعجاز القرآن الكريم ، و الذي ولدته - التدليل -
ملايسات تاريخية التصقت بمسار الحضارة الإسلامية.

و نحن إذ نحاول إنجاز بحث أكاديمي ، يعنى بالبلاغة العربية إرتأينا أن ننطلق من الواقع
السالف الذكر ، أي أننا نحاول التدليل على إعجاز القرآن البياني باعتمادنا على البلاغة ، لهذا
اخترنا لدراستنا هذه موضوعا يلتقي فيه القرآن الكريم و البلاغة ، و لما كان القرآن العظيم يتسع
لموضوعات عدة ، حاولنا أن نتخصص في موضوع قرآني واحد ، كي لا تتشعب دراستنا ، و بناء
على هذا انتخبنا موضوعا قرآنيا له صلة بالدراسة الأدبية و اللغوية وهو: "القصص القرآني" .

و لما كان الدرس البلاغي- كذلك- كثير الفصول ، حاولنا- كذلك- أن نقتصر على جزئية بلاغية
و لكنها مفهوم أساسي من مفاهيم البلاغة ، و هي : "المقام" .

فكان موضوع بحثنا إذا : "مقام القص القرآني" ، و إذ كان هدفنا من هذا البحث هو التدليل
البلاغي انضاف هذا الوصف إلى موضوعنا فأصبح موسوما بـ : " بلاغة مقام القص القرآني" .

هذا ، و كما يتطلب البحث الأكاديمي اختيار متن محدد لإجراء الدراسة التطبيقية عليه ، و تماشيا
مع هذا التطلب اخترنا سورة" يوسف عليه السلام " لتكون متنا لتطبيقاتنا ، و لم يكن اختيارنا هذا
اعتباطا و لكنه جاء بناء على عدة أسباب أهمها : أن لسورة يوسف عليه السلام ميزة خاصة إذ
تحتوي قصة واحدة لنبي واحد ساقته سيرته كاملة بكل أطوارها و مراحلها ، و ثاني الأسباب : أن
قصة يوسف عليه السلام جاءت في سورة واحدة إذ أننا لا نقف على ذكر لها في أي سورة أخرى
إلا ما جاء من ذكر اسم "يوسف" في بعض السور .

و ثالث الأسباب : أنها عرضت وفق منطق متسلسل و حبكة محكمة فتصلح بذلك أن تكون
نموذجا يمثل جميع القصص القرآني ، إضافة إلى أسباب أخرى سنذكرها في إبانها .

و لما يذكر هذا الموضوع – بلاغة مقام القص القرآني- تتبادر إلى الذهن عدة تساؤلات هي ما
نعتبرها إشكاليات لبحثنا و هي :

✓ ما مفهوم القرآنية ، و ما أسس و مقومات بنائها ؟ .

✓ ما البلاغة و ما المقام ؟ .

✓ ما هي مقامات سورة يوسف عليه السلام ؟ .

✓ كيف كانت مقامات القصّ في سورة يوسف عليه السلام بليغة ؟ .

كل هذه الإشكاليات و غيرها هي ما سنحاول الإجابة عليها من خلال عرضنا لحيثيات هذه الدراسة .

و بحثنا هذا ليس بدعا في موضوعه بل سبقته دراسات كثيرة تقترب أو تبتعد عن فحواه إلا أن الدراسات المتقدمة عن بحثنا كانت إجترائية بمعنى أنها تناولت جزءا فقط من موضوعنا ، فمنها ما عني بالبلاغة فحسب و منها ما عني بالقصة القرآنية لا غير ، و ما كان منها يعنى بالإعجاز البياني للقصة القرآنية كان بعيد الطرح عما سنعرضه في دراستنا .

و نعثر على كم كبير من الدراسات البلاغية متضمنة : "المقام" ، باعتباره مفهوما أساسيا من مفاهيم البلاغة العربية .

و لعل أهم من عني بدراسة البلاغة و بخاصة المقام هو : " الجاحظ " ، فكان المقام هو محور تأليفه لكتاب : "البيان و التبيين" ، محاولا بذلك و ضع نظرية لبلاغة الإقناع مركزها الخطاب اللغوي الشفوي و هامشها كل الوسائل الإشارية و الرمزية ، حيث يذهب الجاحظ إلى أن أساس الإقناع الخطابي هو مراعاة أحوال المخاطب .

كما عني "عبد القاهر الجرجاني" بالبلاغة في كتابيه : "أسرار البلاغة" و "دلائل الإعجاز" ، حيث ذكر المقام ضمن نظرية النظم ، فهو يتكلم في القسم الأول من كتابه أسرار البلاغة عن المقام الشعري و في القسم الثاني عن المقام الخطابي ، و هذا الأخير عنده مبني على مؤول مؤهل قادر على فهم ما أشكل من المعاني ، و يذهب في كتابه "دلائل الإعجاز" إلى وجوب مراعاة معاني النحو حسب المقاصد .

كما نجد كذلك " أبو هلال العسكري" في كتابه "الصناعتين" و الإمام الخطيب القزويني في كتابه " الإيضاح في علوم البلاغة" ، و غيرهم .

هذا عن علماء البلاغة المتقدمين ، أما المتأخرين فنذكر منهم : "حمادي صمود" صاحب كتاب "التفكير البلاغي عند العرب إلى نهاية القرن السادس الهجري" ، و الذي يجعل فيه من الجاحظ أساسا في دراسته لتطور البلاغة .

كما نجد من المتأخرين "محمد العمري" حيث يذكر المقام في كتابه "البلاغة العربية أصولها وامتداداتها"، حيث يفصل فيه بين المقام الخطابي و المقام الشعري .

و لعل أول من أفرد المقام بتصنيف خاص هو: "محمد بدري عبد الجليل" في كتابه " تصور المقام في البلاغة العربية " ، ففيه استقصى تطور المقام البلاغي ، معرجا على بعض فنون علم المعاني دون أن يخوض في تفصيلات المقام و أقسامه ومقتضياته .

أما عن الجزء الآخر من موضوعنا و هو "القصة القرآنية" ، فقد تناوله العديد من الكتاب المتأخرين و منهم : "سيد قطب" في كتابه "التصوير الفني في القرآن" ، و "عبد الكريم الخطيب" في كتابه: "القصص القرآني في مفهومه و منطوقه" ، و "خالد أبو جندي" في كتابه "الجانب الفني في القصة القرآنية" ، و "مأمون فريز جرار" في كتابه: "خصائص القصة الإسلامية"، و "مصطفى عليان" في كتابه: "بناء الشخصية في القصة القرآنية" ، و غيرهم كثير .

أما عن المصنفات التي جمعت بين القصة القرآنية و البلاغة العربية بالشكل الذي سنعرضها به، فإننا لم نجد أي مؤلف فيها ، - في حدود اطلاعنا- إلا ما جاء عرضا في التفسير اللغوية و البلاغية كتفسير الكشاف للزمخشري و "تفسير التحرير والتنوير" للمحمد الطاهر بن عاشور".

و كما يقال : " طبيعة الموضوع تحدد طبيعة المنهج " و نحن لم نشذ عن هذه القاعدة إذ حاولنا تمثيلها في كافة أجزاء بحثنا.

فكان عرضنا في الفصل الأول نظريا ، لأننا حاولنا من خلاله الوقوف على مقومات القصة القرآنية و أسس بنائها و البلاغة و المقام و مقتضياتهما . فاتبعنا في المبحث الأول من الفصل الأول منهج دراسة القصة القرآنية دون الدخول في تفاريع و تعقيدات المناهج المعاصرة في دراستها ، و قد طعمنا المنهج السابق بالإجراء الوصفي مع التمثيل و التحليل لكي لا نغرق فصلنا الأول في التنظير البحت .

أما في المبحث الثاني فإننا انتخبنا له منهجا تاريخيا و صغيا لأننا تتبعنا فيه تطور مفهوم البلاغة و تطور مفهوم المقام مع الوقوف على تقسيمات و أجزاء كل واحد منها .

أما في الفصل الثاني ، فإننا كاملنا فيه بين منهج دراسة القصة و بين المنهج البلاغي لأننا حاولنا الوقوف فيه على مراعاة مقامات القصّ القرآني لمقتضيات أحوال المخاطبين .

و كان منهجنا في الفصل الأخير بلاغيا صرفا ، لأننا استقصينا فيه فنون البلاغة معرفين لها ضاربين لها أمثلة من سورة يوسف عليه السلام .

و عن فحوى الفصول ؛ فإننا أفردنا الفصل الأول للدراسة النظرية - كما أسلفنا - فسمينا الفصل الأول ب : " القصة القرآنية و المقام البلاغي .

فاستفتحنا المبحث الأول من الفصل الأول بتعريف القصة القرآنية ، ثم عرجنا بعده على أول مقومات القصة القرآنية وهو: الحدث ، فوقفنا على طبيعته ، وعلى أهم خصائصه و غاياته و تحديد إطاره الزماني و المكاني . وبعد الحدث تناولنا ثاني مقومات القصة القرآنية و هو : الشخصية ؛ فبيننا طبيعتها و حددنا أبعادها أنواعها ثم عرجنا بعدها على أشكال القصة القرآنية و طرائق الإبتداء فيها .

و عرضنا في المبحث الثاني أهم تعريفات البلاغة ، و حللنا التعريف المجمع عليه و وقفنا على مفاهيم أجزائه ، ثم عرجنا بعده على المقام حيث تتبعنا تطور مفهومه و تعاريفه و عناصره .

و باشرنا دراستنا التطبيقية في الفصل الثاني ، فعرّفنا فيه بسورة يوسف عليه السلام و ذكرنا مقامها العام في المبحث الأول ، ثم استقصينا بعده مقامات القصّ في سورة يوسف عليه السلام في المبحث الثاني ، حيث كان لكل مقام قصصي منها مقام عامة و مقامات جزئية ، فعرضنا هذه المقامات و وسمناها اعتمادا على تطور أحداث القصة و التي تسمى : " بالحبكة " ، و هذه المقامات هي : المقام الإستهلاكي و مقام الصراع و مقام الإنفراج و مقام العظة . وجعلنا لكل مقام قصصي مبحثا خاصا به .

وكان عملنا في هذا الجزء من البحث محاولة التدليل بحبكة القصة على بلاغة القصة القرآنية لأننا انطلقنا ابتداء من حكم جاهز و هو: أن القرآن الكريم يتموضع في أعلى درجات البلاغة لأنه كلام الله المعجز بلفظه و معناه .

و كان عملنا في الفصل الثالث التدليل بعلوم البلاغة و فنونها على إعجاز القصة القرآنية وذلك بمطابقة مقاماتها المختلفة لمقتضيات أحوال المخاطبين فيها و بها .

و قد تتبعنا في هذا الفصل - الثالث - فنون البلاغة و التي تندرج تحت علوم ثلاثة و هي : علم المعاني ؛ و الذي استعرضناه في المبحث الأول ، و علم البيان في المبحث الثاني ، و علم البديع

الذي كان في المبحث الثالث . و قد ضربنا لفنون البلاغة ومباحثها أمثلة من سورة يوسف عليه السلام و حللناها و وقفنا على وجه المطابقة فيها لمقتضى الحال .

و ما بقي لنا إلا أن نقول أننا قد استفرغنا جهدنا في دراستنا المتواضعة هذه حتى نخرجها في صورة رصينة متقنة . إلا أننا نقر بأن فيها بعض الهنات - ككل عملي بشري - ، فلكل شيء إذا ما تم نقصان .

الفصل الأول

القصة القرآنية و المقام البلاغي

تمهيد :

تعتبر القصة القرآنية أحد أهم مواضيع القرآن الكريم لأنها تشغل حيزا كبيرا منه و ذلك لفاعليتها التبليغية . وما يزيد من أهميتها هو عرضها وفق منهج بلاغي معجز لا يأتيه الباطل من بين أيديه ولا من خلفه.

ونحن في دراستنا هذه نحاول الإستدلال على بلاغة القصة القرآنية بمطابقة مقاماتها لمقتضيات الأحوال فيها وبها.

وقبل أن نباشر استدلالاتنا و تطبيقنا على المتن المتن المنتخب كان جديرا بنا أن نشرح و نبين أهم مفاهيم ومصطلحات بحثنا هذا . لذلك عقدنا في بدايته فصلا نظريا ، والذي وقع في مبحثين ؛ الأول خصصناه للقصة القرآنية فعرضنا فيه مقومات بنائها و أهم عناصرها وخصائصها وأشكالها. و الثاني أفردناه للبلاغة و المقام ، حيث استقصينا فيه مفهوم البلاغة و المقام و تطور مفهومهما الإصطلاحي . ووقفنا على أهم مقتضياتهما وحيثياتهما .

● المبحث الأول : مقومات القصة القرآنية و أسس بنائها .
أولا : مفهوم القصة القرآنية :

لا يعثر المتتبع لمصطلح "القصة" - بحرفيتها- في القرآن على أثر لها ، لكن يجد اشتقاقات كثيرة منها :

الفعل قصّ : و هو في قوله تعالى : " فلما جاءه و قصّ عليه القصص " ¹ .

الفعل تقصص : و هو في قوله جل ذكره : " لا تقصص رؤياك على إخوتك " ² .

الإسم : و نجده في قوله تعالى : " فارتدا على أثرهما قصصا " ³ .

أ. القصة لغة :

أورد ابن منظور في مادة "قَصَصَ" ما مفاده : " و قصّ آثارهم يقصّها قصّا ، و قصّصا و تقصّصها : تتبّعها بالليل ، و قيل : هو تتبّع الأثر في أي وقت كان ، قال تعالى : " فارتدا على

¹ القصص ، 25 .

² يوسف ، 5 .

³ الكهف ، 64 .

آثارهما قصصاً" ، و كذلك اقتصَّ أثره ، و تقصَّصَ ، و معنى: "فارتدا على أثرهما قصصاً" ، أي رجعا من الطريق الذي سلكاه يقصان الأثر أي : يتتبعانه"¹ .

و قال فيها أيضا : " القصة : الخبر ، و هو القَصَص ، و قصَّ علي خبره يقصّه قصًا ، و قصصًا : أورده ، و القَصص : الخبر المقصوص ، بالفتح ، وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه . و القصص بكسر القاف : جمع القَصَص التي تكتب "² .

و قال في موضع آخر: " و القَصص بالفتح: الإسم ، و القاص: الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها و ألفاظها " ³ .

ب. القصة القرآنية اصطلاحا :

أما من الناحية الإصطلاحية فإننا نقف على تراكم توصيفي كبير للقصة القرآنية . و من أهم تعريفاتها ما قاله سيد قطب فيها : "القصة في القرآن ليست عملا فنيا مستقلا في موضوعه و طرق عرضه و إدارة حوادثه كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق، بل هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية"⁴ ، فالقصة القرآنية ترسم لنا مشهدا كاملا تبرز فيه الحركات الظاهرة و الإنفعالات المضمرة و تلتقي فيه الصور الحسية بالصور النفسية و كأنها الحادث معروض من جديد ، دون أن يغفل منه كثير أو قليل"⁵ ، فيخاطب القاصص القرآني " حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية"⁶ .

بينما يذهب عبد الكريم الخطيب إلى القول بأن "لفظ القَصص أو القصّ أنسب لفظ يطلق على تلك الأنباء التي عرضها القرآن ، إذ أن ذلك أشبه بقصّ أثر الشيء و تتبعه ثم الوقوف عليه بذاته لا على صورته أو ما يشبه صورته"⁷ .

و يقول في موضع آخر: " فالإشتقاق اللغوي للقصة أو القصاص هو؛ كشف عن أحداث نسيها الناس أو غفلوا عنها ، و غاية ما يراد بهذا الكشف هو إعادة عرضها من جديد لتذكير الناس بها و إلفاتهم إليها ليكون لهم عبرة و موعظة "⁸ .

¹ ابن منظور جلال الدين ، لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، دط ، م5 ، ج36 ، ص 3651 .

² ابن منظور جلال الدين ، المرجع السابق ، م5 ، ج36 ، ص 3651 .

³ المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

⁴ سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، دار الشروق بيروت ، لبنان ، ط8 ، 1983 ، ص143 .

⁵ سيد قطب ، المرجع السابق ، ص50 .

⁶ المرجع نفسه ، ص143 .

⁷ عبد الكريم الخطيب ، القصاص القرآني ، في منطوقه و مفهومه ، ص52 .

⁸ عبد الكريم الخطيب ، المرجع السابق ، ص50 .

و يرسم سليمان عشريني حد القصة القرآنية قائلا: " القصة في القرآن بوصفها واسطة بيانية تبليغية لناموس سماوي غايته تجذير العقيدة و توطيد نظام حياة متكامل للإنسانية و تغيير ما بالنفوس من جهالة و شرك و عبودية (لغير الله) . نزعت منزعا واقعيا ، فصدرت في الأغلب عن مرجعيات تاريخية ارتبطت بسير الأنبياء و الرسل في أزمنة غابرة و بأخبارهم و صراعاتهم من أجل رسالات الله، من هنا كانت قصصهم القرآنية أخبارا لا يمكن إلا أن تنسجم من حيث الأصالة و الصدق مع روح الكتاب المبين الذي لا ينطق عن الهوى و لا يصدر عن وهم . و الصدق التاريخي معيار حرص القرآن على إثباته و تأكيده المرة تلو المرة"¹ .

و يقول في موضع آخر: "... إن هذه القصص - و هي تساق ضمن نصوص القرآن- اصطبغت بخصائص نابغة من أدبية التبليغ القرآني من حيث القوة البيانية و الإنسجام التعبيري و الملاءمة الموضوعية ضمن الأغراض العامة للسياق الذي و ردت فيه "² .

و من خلال عرضنا لأقوال عدد من المشتغلين بدراسة القصة القرآنية نقف على عدة نقاط تقاطع بينهم هي بمثابة معالم ترسم حدودها . و نحن نحاول أن نلملم هذه التقاطعات لنخلص إلى مفهوم جامع للقصة القرآنية فنقول : هي وسيلة بيانية من وسائل القرآن الكريم إلى أغراضه الدينية، تقتص- ما ثبت تاريخيا- سير الرسل عليهم السلام و من آمن بهم و مصير من كذبهم و كفر بهم و كايدهم ، واقفة على مواطن العبرة و العظة ، مسلية للرسل و أتباعهم المبتلين ، مع مفارقتها للخيال لأن القرآن كله حقيقة .

و تبنى القصة القرآنية على مقومين أساسيين هما : الأحداث و الشخصيات

ثانيا : مقومات القصة القرآنية

1 : الحدث في القصة القرآنية :

أ. طبيعة الحدث :

القصة القرآنية حركة لأنها تروي عملية تغير بطريقة ما ، و ما الحركة إلا حدث ، و الحدث " هو جوهر الفعل القصص و إطاره الموضوعي و الفني و هو علاقة الإستقطاب و الدفع التي تتحرك عبرها الشخصية أو شخصيات القصة ضمن شروط السياق الزماني و المكاني ، ذلك لأن الحدث سواء كان معقولا أو خارقا إنما يشترط إطارا ظرفيا يؤقت لوقوعه و يحدد الأرضية

1 سليمان عشريني ، الخطاب القرآني ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، الجزائر ، ط ، 1998 ، ص67.

2 سليمان عشريني ، الخطاب القرآني ، ص67.

و الفواعل التي هيأته أو صاحبه أو تقاطعت معه مباشرة أو بالتبعية على نحو فني يتجسد فيه العمل القصصي"¹ . فما الحدث - إذا - إلا تحرك الشخصية في إطار الزمان و المكان .

و للأحداث في القصص القرآني خصائص و غايات عامة تفرقه عن القصص الإنساني . نذكر منها .

ب. خصائص الحدث في القصة القرآنية و غاياته :

(1) خصائص الحدث في القصة القرآنية :

نستعرض هنا بعض الخصائص العامة للحدث القرآني ذاكرين :

✓ عدم ذكر كل الأحداث المتعلقة بحياة الشخصية القرآنية بتفصيلاتها وأبعادها و أعماقها ، بحركاتها وسكناتها ، بنطقها وصمتها وإنما تذكر " الأحداث التي من شأنها أن تحدث في النفس أثرا و تقيم في الضمير وازعا و تفتح العقل و القلب عن مواقع للعبرة و العظة "² .

✓ أن الآيات التي تجيء لتبرز مواطن العبر و العظة " ليست من أحداث القصة أو بمعنى أوضح ليست من الواقع الذي تنقله إلينا القصة وإنما هي إضافات جديدة جاء بها القرآن بعد أن أنهى القصة و أوقف سير الأحداث عند الغاية التي أجراها فيها "³ . و مثال هذه الخصيصة ما ذكر من آيات عقب نهاية قصة سيدنا يوسف عليه السلام من الآية 102 إلى الآية 111 .

✓ تظهر الأحداث في بعض القصص القرآني بصفة " معجزة أو خارقة فتكون خارجة عما ألفه الناس ، فهي تظهر القدرة الإلهية و ذلك لتقديم دليل على صدق النبوة أو الإنتقام من المخالفين أو البشرى للمؤمنين "⁴ . و من هذه المعجزات : تجسد الملائكة في صورة بشرية فخفيت على لوط و إبراهيم و مريم ، و منها نجاة إبراهيم من النار و لبث أهل الكهف نائمين فيه ثلاث مائة و تسع سنين و كلام عيسى عليه السلام في المهد و إحياءه للموتى و إشفاءه للمرضى و ابيضاض يد موسى من غير سوء و شقه للبحر و تفجيرها للعيون بالعصا .

¹ سليمان عشريني، الخطاب القرآني، ص67.

² عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآني ص 71-72

³ المرجع السابق ص 167 .

⁴ مأمون فريز جزار ، خصائص القصة الإسلامية ، دار المنارة ، جدة السعودية ، ط1 ، 1988 ، ص8

✓ و هذه الخوارق وأشباهاها مما " خص به كل نبي أمر خاص لا يكاد يتكرر مع غيره ومع غير قومه . وورود هذه الأحداث الخارقة والمعجزة في القصة القرآنية موافق لطبيعتها " ¹ .

✓ يسوق المنحى القصصي القرآني " أحيانا القصة وقد وحدت حدثيتها بين مجموعة من الفاعلين، فهم جميعا يواجهون في آن سردي واحد إشكالا شركيا واحدا و يحاجون بمنطق توحيدي واحد و يتعرضون لمدافعات واحدة فالأدبية السردية في هذا المنزع القصصي القرآني تتمط الحدثية فتجعل الأبعاد فيها (الزمانية و المكانية) تتطابق أو تتحد ، كأنما أصبح مجموعة الفاعلين فاعلا واحدا قد بعث وصارع قوى الشرك في مكان وزمان معينين " ² . ومن مثل هذه الخصيصة قوله جل شأنه : " ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب " ³ . فالفاعلون هنا هم الرسل والأنبياء جاؤوا أقوامهم بالبينات لكنهم كفروا وتمردوا على الحق بعد إذ جاءهم ، بل حتى اللهجة الإفضائية واحدة في قطعيتها وشرطيتها كما في قوله تعالى : " وقال الذين كفروا لرسلكم لنخرجكم من أرضنا أو لنعودن في ملتنا " ⁴ . فكان مآل الكافرين في قوله تعالى : " فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين " ⁵ .

(2) غايات الأحداث في القصص القرآني :

و للأحداث القصصية في القرآن غايات وأهداف سامية تتماشى و قدسية الكتاب الذي يحملها بين دفتيه، ولعل أهم غايات الأحداث :

✓ أنها " ليست إلا محك اختبار تظهر معادن الرجال أو تختبر بها مواطن القوة والضعف فيها، ومنازع الإحسان والسوء منهم " ⁶ ، فلكل وجهة هو مؤليها .

✓ وثاني أهم غاياته هي تمثل العبرة و الموعظة لأن " مناط العبرة والعظة إنما هو في الحدث وفي موقف الناس منه وتلقيهم له من بين محسن ومسيء ومقبل ومعرض ومستقيم ومنحرف

1 مأمون فريز جرار ، خصائص القصة الإسلامية ، ص 81 .

2 الخطاب القرآني ، ص 89 .

3 إبراهيم ، 09 .

4 إبراهيم ، 13 .

5 إبراهيم ، 13 .

6 عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآني ، ص 44 .

..... ومن خلال هذه المواقف التي يقفها المحسنون والمسيئون من الأحداث تنكشف وجوه العظة والعبرة منها ، وهذا ما جاء القصص القرآني من أجله "1 .

✓ وثالثها : أن معظم أحداث القصص القرآني تدور حول الدعوة إلى الله وتصحيح العقيدة والسلوك بحكمة بالغة وحجة دامغة ومنطق لين. وصفوة القول ، أن " الحدث الفني أدى دوره المرسوم في حيز الحكيم الفني القصصي لحكاية القصة وكان أدائه منظما قويا متلاحما لا يعتوره أي ترهل ولا تخرجه عن مركز الحكاية أي سيئة "2 .

ج. زمن الحدث :

والزمن له " مكانه الملحوظ دائما في سير الأحداث القصصية وفي تنميتها وإنصاجها وخروج الحدث القصصي عن حدود الزمن و من قيوده يجعله في عزلة عن الحياة و في انقطاع عن الروافد التي يتغذى منها "3 .

فالحدث يتحرك في إطار الزمن ويعيش فيه و بغيره يهوي ويسقط ميتا بلا حراك ، فما الحدث إلا تحرك الشخصية في إطار الزمان والمكان ، فلا يتصور فعل فاعل دون زمن لأن الفعل يحيل استلزاما على الزمن .

والمتتبع لأحداث القصص القرآني لا يقف على تحديد تاريخي لوقوعها . فلا نعلم متى خلق آدم عليه السلام ومتى أنزل إلى الأرض ومتى كان طوفان نوح عليه السلام ، ولا متى كيد ليوسف ، ولا متى بعث موسى ... و " ذلك أن تحديد الزمن لا يزيد في تأثير تلك القصص التي سبقت للعبرة والذكرى . وإذا كنا لا نجد في القصة القرآنية تحديدا لموقعها في مسار التاريخ فإننا نرى فيها صورة أخرى للزمن وهو الزمن الداخلي الدال على المدة التي استغرقها وقوع الحدث ، وذلك لارتباطه بالغاية من القصة وكشف مواطن العبرة فيها "4 .

فنجد في بعض القصص القرآني تحديدا دقيقا للزمن الداخلي الذي استغرقه الحدث أو القصة بأكملها . ومنه ما ذكر في قصة أصحاب الكهف و هي في قوله تعالى : " ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا "5 . فهذا خبر من " الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بمقدار ما

1 عبد الكريم الخطيب ، المرجع السابق ، ص 45 .

2 خالد أبو جندي ، الجانب الفني في القصة القرآنية ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، دط ، دت ، ص 157 .

3 عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآني ص 85 .

4 مأمون فريز جزار ، خصائص القصة الإسلامية ، ص 86 .

5 الكهف ، 25 .

لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان وأنه كان ثلاث مئة سنة وتسع سنين بالهلالية»¹ .

وذكر مدة اللبث هنا لغاية إعجازية تتماشى وسياق القصة المعروضة لأن أحداثها انصرفت في الزمن الغابر فتطاول عليها ، فضلا عن لبثهم في فجوة الكهف دون غذاء وماء ولم يتسرب إليهم التحلل والفساد بحفظ من الله الحكيم القدير ، وذلك إعجاز آخر .

وهذا ما يزيد في ترسيخ وتثبيت العبرة من سوق هذه القصة المعجزة . كما يذكر الزمن محددًا تحديداً تقريبياً ، لأن التحديد الدقيق لا يزيد من قوة التأثير الإعتباري بذكره ومن نحوه قوله تعالى : " وقال للذي ظن أنه ناج منها اذكرني عنه ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين " ² .

وأما "البضع" فقال فيها "مجاهد و قتادة هو ما بين الثلاث إلى التسع ، وقال وهب ابن منبه : مكث أيوب في البلاء سبعا ويوسف في السجن سبعا وعذاب بختنصر سبعا . وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما : فلبث في السجن بضع سنين قال : اثنتا عشر سنة . وقال الضحاك : أربعة عشر سنة " ³ .

فلاحظ اختلاف علماء التفسير في تقدير "البضع" ، لأن مناط الموعظة ليس في التحديد ولكن فيما تحمله المدة من إرهاصات تتمثل في كشف معدن هذا النبي العظيم - يوسف عليه السلام - ، وما في نفسه من قوى الإيمان بالله ، ولو افتقدناها في القصة لافتقدنا هذا الإحساس وتلك المشاعر و هذا التعاطف الذي يصل بيننا وبين هذا النبي الكريم وما في نفسه من رصيد عظيم من الصبر والإيمان " ⁴ .

ومن أشكال الزمن الداخلي أن يطل علينا على شكل ظروف للزمان . فبالرغم من كونها تحمل دلالات محددة إلا أن لها فاعلية في تشخيص الحدث ، ومنها قوله تعالى : " و جاؤوا أباهم عشاء بيكون " ⁵ .

1 إسماعيل بن كثير ، تفسير القرآن العظيم دار بن حزم ، بيروت ، ط1 ، 2000 ص 1152 .

2 يوسف ، 32 .

3 إسماعيل بن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ، ص 985 .

4 القصص القرآني ، ص88 .

5 يوسف ، 16 .

لقد كان ظرف الليل - في هذه الآية - " دثارا كثيفا احتفى فيه هؤلاء الأبناء وداروا فيه ما كان يفضحه النهار منهم من وجل وخجل" ¹ .

فقد كان اختيار الظرف "عشاء" مفعولا فيه الحدث مناسبا لمقام الكذب و التزييف فتواري فيه أبناء يعقوب عليه السلام لإخفاء ما اصطنعوا من مشاعر التفجع و الجزع . كما تسهم ملامح الأحداث و الشخصيات في بلورة الزمن . كأن يكون الفاعل في مكان ثم نراه في مكان آخر أو أن يكون طفلا فنراه قد بلغ أشده... . ففي كل هذا و أمثاله " عناصر زمنية متجددة و متحركة بالأحداث سائرة بها إلى مراحل و غايات " ² .

فالزمن ينصرم - مثلا - أثناء التحول عن المكان و من هذا التحول قوله تعالى : " و إذ قال موسى لفتهاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا(60) فلما بلغ مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا(61) فلما جاوزا قال لفتهاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا" ³ .

و القرائن الدالة على التحول هنا هي دلالة الأفعال : "لا أبرح" ، "بلغا" ، " جاوزا " . ففي هذه الأفعال من الحركة و الإستغراق ما يدل على الزمن . فيظهر لنا جليا مدى إسهام هذه العناصر الزمنية - دلالة الأفعال- في تحريك الحدث و دفعه إلى غايته . و من مثله قوله جل في علاه : "ولما بلغ أشده آتيناه حكما و علما" ⁴ .

فنرى الشخصية هنا تحولت و تبدلت ، فبلوغ الأشد : هو بلوغ الغاية من القوة الجسمية و العقلية ، و لا بد لهذا التحول و البلوغ من زمن ، و إن أضمره السياق .

كما تتوزع المقاطع الزمنية على مساحة القصة القرآنية توزيعا دقيقا معجزا يتراوح بين الحضور و الغياب ؛ فيظهر الزمن الداخلي و يلح عليه عندما يكون له دور في إلقاء الضوء على الأحداث و يختفي عندما لا يكون له ذلك . فنجد وفقا لهذا أن جميع المقاطع الزمنية قد استوفت نصيبها من الإلحاح السردى اقتضابا أو استرخاء .

1 عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآني ، ص 87 .

2 عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآني ، ص 88 .

3 الكهف ، 60-62 .

4 يوسف ، 22 .

فعرضت بعض الفترات الزمنية باقتضاب شديد نحو ما نصادفه في قصة سيدنا يوسف عليه السلام في حادثة رميه في الجب و هي في قوله تعالى : " فلما ذهبوا به و أجمعوا أن يجعلوه في غيابه الجب " ¹ .

كما نجد إسقاط كتل زمنية كبيرة من السياق السردي للقصة القرآنية على شاكلة ما جاء في قصة سيدنا يوسف عليه السلام في حادثة انتقال السيارة – بعد أسرها ليوسف عليه السلام- من بادية الشام إلى مصر و التي تستغرق عادة حوالي الشهرين ، و لم يذكر هذا المقطع الزمني لأنه لم يحمل أحداثا ذات بال ضمنه . فلا نقف على ذكر للزمان في هذا الحدث إلا ما يحمله فعل الإنتقال من زمن ضمنى خلاله .

و بالمقابل من هذا ، نجد إلحاحا كبيرا و تفصيلا دقيقا في عرض بعض الأحداث و إن لم تستغرق زمنا طويلا . مثل عرض حادث المراودة الذي كان من زوجة العزيز ليوسف عليه السلام في قصته ، و ذلك - ربما- لإبراز قيم و صفات و خلجات نفسية لعدة شخصيات مدفوعة بنوازع متباينة . و هذا الإلحاح " لم يكن للترجية أو للترفيه عن القارئ بل إنه النموذج القصصي الكامل لكيفية التناسب بين الأحداث الهامة و أزمانها و الأحداث الهامشية و أزمانها ، و هذا يعني بلغة مباشرة ؛ أن القصة القرآنية تعطي المشهد الروائي الذي ينمي الفكرة و يشكل دعامة من دعائم بنائها أكبر نصيب من الإهتمام " ² .

د. التظاهرات الزمنية في القصة القرآنية :

يطل علينا الزمن في القصة القرآنية متمظها في عدة أشكال و هي :

(1) الزمن التعاقبي :

و هو التمظهر المهيمن على التوزيعات الزمنية للقصة القرآنية ، و فيه تعرض الأحداث وفق ترتيب زمني كما حدث واقعا و انصرم وجودا . و في القرآن أمثلة كثيرة تعني كثرتها عن التمثيل. فهو بهذا العرض الترتيبي يفيدنا وثيقيا أي : أن عرض الأحداث بهذا الشكل يضع بين أيدينا ثبنا تاريخيا مؤقتا لوقوع الأحداث ، فضلا عن إقامة العلاقات السببية العلية التي تساهم في توليد الحدث من الحدث ، فالحدث الأول مقدمة للثاني و الثالث سببه الثاني.....

1 يوسف ، 15.

2 خالد أبو جندي ، الجانب الفني في القصة القرآنية ، ص218 .

(2) الوقف :

الوقف : هو توقف مجرى الأحداث " بالعدول عن الحكاية إلى الوصف الذي ليس مجانيًا ، فقد تكون الوقفة تأملية بحيث تتعدد المسافات و الرؤى و المشاعر اتجاه الموضوع المتأمل ، و هذا ما يشكل حكاية متكاملة ، حيث يترك الحدث القصصي جانبًا"¹ .

و منه قوله تعالى : " و اضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب و حففناهما بنخل و جعلنا بينهما زرعاً(32) كلتا الجنتين آتت أكلها و لم تظلم منه شيئاً و فجرنا خلالها نهراً(33) و كان له ثمر فقال لصاحبه و هو يحاوره أنا أكثر منك مالا و أعز نفراً(34)"² .

تستهل قصة صاحب الجنتين بوصف لهما - الجنتين- ثم تليه الأحداث مبدوءة بالمحاوره . فالوصف هنا ليس من أحداث القصة ، لكنه يضطلع بمهمة كبيرة تتمثل في كونه يحمل بعداً تمهيدياً قبل عرض الأحداث ، لأن الوصف يجلي لنا حالة الجنتين و امتلاءهما بمظاهر النظارة و البهجة اللتان كانتا سبباً في ظلم صاحبهما لنفسه " بكفره و تمرده و تكبره و تجبره و إنكاره المعاد فقال:"ما أظن أن تبيد هذه أبداً"³ ، و ذلك اغترار منه لما رأى فيهما من الزرع و الثمار و الأشجار و الأنهار المطردة في جوانبها و أرجائها... ، ظن أنها لا تفتنى و لا تهلك ، و لا تتلف ، و ذلك لقله عقله ، و ضعف يقينه بالله و إعجابه بالحياة الدنيا و زينتها و كفره بالأخرة "⁴ .

فالوصف هنا ليس مجانيًا ، لأنه فصل في رسم الفضاء الذي سيكون سبباً للكفر و للإغترار . فلما علمنا مدى ازدهار الجنتين لم نتفاجأ كثيراً بما ولده في نفسية صاحبهما .

(3) المنحى التزامني :

و هناك منحى آخر يتبع في سرد أحداث القصة ففيه " يتراوح الزمن بين التعاقب(أي الخطية) و بين التزامن في الحديثية ، فالسرديّة في هذا المنحى تأخذ بتقنية إخبارية متعددة المستويات ، حيث يتم تقديم الحدث من أكثر من زاوية و بصورة تزامنية أو تكاد "⁵ . فعلى المستوى الظاهري تبدو الأحداث معروضة بنسق تعاقبي لكنه تزامني لم يسع السرديّة أن تعرضها في وقت واحد إلا على هذا النحو الإضطرادي .

¹ سليمة مدلفاف ، تحليل الخطاب القصصي في القرآن الكريم ، رسالة ماجستير ، 1996-1997 ، ص 17 .

² الكهف ، 32-34 ..

³ الكهف ، 25

⁴ ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ص 1155 .

⁵ سليمان عشراني ، الخطاب القرآني ، ص 107 .

ففي هذا المنحى تصدر مواقف متباينة في فضاءات فيزيقية مختلفة و لكن في ذات الظرف الزمني . و " هي - السردية القرآنية - عن طريق التحول من مشهد إلى مشهد قد هيأت للمتلقي أن يقيم ذهنيا علاقة التوازي بين الوقائع كما عاشتها شخصية القصة أي : في مسارها الزمني"¹ .

و من مثل المنحى التزامني ما نجده في قوله جل شأنه : " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون و هامان و جنودهما كانوا خاطئين(8) وقالت امرأة فرعون قرة عين لي و لك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا و هم لا يشعرون(9) و أصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين(10) و قالت لأخته قصيه فبصرت به على جنب و هم لا يشعرون(11)"² .

فالزمن القائم هنا هو زمن فراغ أم موسى و حزنها و يوازيه زمن غبطة زوجة فرعون بقرة عين وهي موسى . فبالرغم من قصر ما سرد إلا أن أنه اضطلع بمهمة كبيرة في الكشف عن مواطن التباين في المشاعر إزاء الموقف الواحد ، و ذلك لإبراز حكمة بالغة مفادها : ظاهر الأمور ليس دائما يصدق ، فرب محنة كانت منحة و رب نعمة كانت نقمة .

فابتلاء أم موسى بإلقاء و ليدها في اليم كان منحة ، لأن العناية الإلهية قد استشرفت لموسى النبوة بعد رده إلى أمه - " إنا رادوه إليك و جاعلوه من المرسلين"³ - ، فهذه المحنة تحولت إلى منحة ، لأنه من خلال إلقاء الأم لموسى في اليم نجا من قتل فرعون له لأنه كان يقتل كل الصبيان الذين يولدون في العام الذي ولد فيه موسى عليه السلام . و يقابله اغتباط آل فرعون بموسى ليكون لهم عدوا و حزنا و هم لا يشعرون ، وهذه هي النقمة التي رآها آل فرعون نعمة .

(4) الإضمار :

هو إسقاط بعض المقاطع الزمنية من القصة القرآنية لكن بتأشير قرآني عليها . و يكون بإيراد ألفاظ دالة على الزمن المضمّر ، نحو : " فلما بلغ أشده" و " بضع سنين" و الأداة " لما " لما لها من القدرة على ضغط الزمن المنصرم المضمّر ، لأنها تسقط المراحل السكونية التي لا تحمل حدثا مهما .

وأمثلة الإضمار في القرآن ما جاء في قوله تعالى : " وقال الذي اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا و كذلك مكنا ليوسف في الأرض و لنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره و لكن أكثر الناس لا يعلمون(21) و لما بلغ أشده آتيناها حكما و علما و كلك

1 سليمان عشريني ، المرجع السابق ، ص108 .

2 القصص ، 11-08 .

3 القصص ، 07 .

نجزي المحسنين(22) وراودته التي هو في بيتها عن نفسه و غلقت الأبواب و قالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون(23)"¹ .

فالزمن المضمر هنا توسط زمنين ممثليناأول : زمن وصول يوسف عليه السلام إلى بيت العزيز . و الثاني : زمن حادثة المراودة ، فذكرا لما كان لهما الأهمية الأساس في حبك القصة ، أما الزمن المضمر فلم يمثل بالرغم من طوله واكتفي بالإشارة إليه فقط لأنه - كما أسلفنا - لم يساهم في إنماء القصة .

و هذه هي طريقة " القرآن في عرض القصة ؛ قسمها إلى مشاهد و جعل بينها فجوات فنية يملؤها الخيال ، فلا يفوت القارئ شيء من الأحداث و المناظر المتروكة بين المشهد و المشهد مع الإستماع الفني بحركة الخيال الحية " ² .

(5) الإستباق (الإستشراف) :

السابقة هي " عملية سردية تتمثل في إيراد حدث آت و الإشارة إليه مسبقا " ³ .

و مثال الإستباق في قوله جل في علاه : " و نريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض و نجعلهم أئمة و نجعلهم الوارثين(5) و نمكن لهم في الأرض و نري فرعون و هامان و جنودهما منهم ما كانوا يحذرون(6) و أوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم و لا تخافي و لا تحزني إنا رادوه إليك و جاعلوه من المرسلين(7)"⁴ .

تحمل هذه الآيات الكريمة ثلاثة إيرادات استباقية لما ستؤول إليه أحداث قصة موسى عليه السلام .

فالبعد الإستباقي الأول يتجلى في تبشيرالله عز و جل لبني إسرائيل بالتمكين في الأرض و جعل آل فرعون و جنودهم يرون رأي العين ما كانوا يحذرون .

و الثاني : تطمين أم موسى برده إليها لتقر عينها به .

و الثالث : جعل الله لموسى من المرسلين .

1 يوسف ، 21- 23 .

2 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، لبنان ، ط24 ، 1995 ، م5 ، ص 2277.

3 سمير المرزوقي ، جميل شاعر ، مدخل إلى نظرية القصة : تحليل و تطبيقا ، الدار التونسية للنشر ، دط ، ص 76 .

4 القصص ، 5- 7 .

و تخلق السوابق - عموما - حالة انتظار و ترقب لدى المتلقي . أما في هذه القصة فتتلخص في سوق البشرى و التسلية عن المبتلين فيها و لمن يلتمس المثلية المألية منها .

و كما يتجلى هذا التمظهر الزمني- الإستباق- في المرائي الحلمية " لأن الحلم في القرآن هو تشكيل زمني استشرافي يتشخص به الحدث المستقبلي على صورة رمزية توغز فيها الإرادة الإلهية إلى الفاعل بملابسات زمنية مقدرة عليه " ¹ . و مثاله وما جاء في سورة يوسف عليه السلام من قوله تعالى : " إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنني رأيت أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر لي ساجدين (4) قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين" ² .

و يتجلى الإستباق في هذه الرؤيا - التي رآها يوسف عليه السلام و هو صبي- في تلك البشائر التي ساقتها ، و التي فصلها أبو يوسف عليه السلام بعدما أجملتها الرؤيا ، و هي في مجموعها - البشائر- تحيل على المستقبل الواعد الذي ينتظر يوسف عليه السلام .

(6) الإلحاق (الاستذكار) :

اللاحقة هي : " عملية سردية تتمثل في إيراد حدث سابق للنقطة الزمنية التي بلغها السرد" ³ .

و من مثلها في القصص القرآني قوله تعالى : " فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين(16) أن أرسل معنا بني إسرائيل(17) قال ألم نربك فينا و ليدا و لبثت فينا من عمرك سنين(18) و فعلت فعلتك التي فعلت و أنت من الكافرين(19) قال فعلتها إذا و أنا من الضالين(20) ففررت منكم لما خفتكم فوهد لي ربي حكما و جعلني من المرسلين(21)" ⁴ .

ففي هذه الآيات الكريزمات نقف على إلحاق تذكيري من فرعون لموسى عليه السلام ، قاصدا الإستهزاء به و إرباكه قبل الشروع في دعوته إياه ، " و هكذا جمع فرعون كل ما حسبه ردا قائلا: لا يملك موسى عليه السلام معه جواب و لا يستطيع مقاومة و بخاصة حكاية القتل و يمكن أن يعقبها من قصاص يتهدده به من وراء الكلمات" ⁵ .

ونجمل فنقول : أن السردية القرآنية و هي تتعامل مع المقاطع الزمنية وزعتها توزيعا محكما و بقدر و بإعجاز ينضاف إلى الإعجاز العام لهذا الخطاب المقدس .

1 الخطاب القرآني ، ص 107 .

2 يوسف 4-5 .

3 سمير المرزوقي ، جميل شاعر ، مدخل إلى نظرية القصة ، ص 86 .

4 الشعراء ، 16- 21 .

5 سيد قطب ، في ظلال القرآن م5 ، ص2591 .

و. مكان الحدث :

يمعلم الفضاء الحدث مكانيا ، فتتحرك الشخصية من خلاله و تمارس الحدث في إطاره الذي لا مندوحة لها- الشخصية- عنه . و لم تخص " الأدبية القرآنية المكان من حيث هو حيز مادي أو فضاء فيزيقي مائل أو متخيل بتتويهاها إلا لكونه أحد الموضوعات الأساسية التي ارتكز حولها الخطاب القرآني سواء و هو بيني مجاليته الحسية بوصف مظاهر العظمة المادية المتجلية فيه أو و هو يستدل بآثار ذلك الكون الحسي على ألوهية الخالق رب العالمين"¹ .

ذلك و أن القصة القرآنية بحدثيتها و سياقاتها توجه المكان و تحدد إطاره ، و تتحكم في توزيعه بحيث يسهم المكان في إيضاح المغزى و في التمثيل الظاهر للعبارة.

هذا ، و لم يتلبس المكان بمظهر نعني قار بل تمظهر في أشكال مختلفة باعتبار الموقف السردى و السياق العام للقصة ، لأن المكان ليس إلا عنصرا فاعلا من عناصر الحك الكصصي المعجز ، بمعنى أن ذكر المكان بصفة مخصوصة من وجوه الإعجاز في القصص القرآني . و يظهر المكان فيها بالأشكال التالية :

✓ أن يذكر المكان صراحة محددًا تحديدا جغرافيا معروفا كقوله تعالى : " و قال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا و كذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث و الله غالب على أمره و لكن أكثر الناس لا يعلمون"² . فالى مصر الحاضرة و إلى بيت العزيز يصل يوسف عليه السلام - بعد الأسر- . و هو مكان الفتنة و البلاء المبين . و بعد بضع سنين يمكن له و يجعل على خزائن مصر . فالمكان هنا موصوف بالحضر و التمدن و هذا ما نتبينه من سياق عرض قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، فهي مرتع للترف و البذخ خاصة في القصور فهناك يقل الحياء و تذبل الفضيلة ، و هذا ما ظهر في حادثة المرادة من امرأة العزيز و النسوة ليوسف عليه السلام ، و ما قابله من فتور الغيرة من الرجال ، و هو مستنتج من رد فعل العزيز عندما اكتشف أن امرأته هي من راودت يوسف عن نفسه . ناهيك عن أن ذكر المكان مما يدخل في الثبوت التاريخي ، لأن انتقال يوسف عليه السلام ثم أهله من بعده من الشام (البدو) إلى مصر كان هو سبب انتقال بني إسرائيل هذا الانتقال التاريخي . بالإضافة إلى ما يحمله المكان من أبعاد تنظيمية و قضائية لمصر الحاضرة ، و هذا ملاحظ من خلال الأحكام التشريعية التي تحكمهم كالحكم بإعدام صاحب السجن و إطلاق صاحبه الآخر . و هو فوق هذا و ذلك ، فهو - المكان - يبرز قيمة اقتصادية ، و التي كانت

1 سليمان عشراني ، الخطاب القرآني ، ص147 .

2 يوسف ، 21 .

أثناء سنوات الخصب و القحط و بعدها حين يغاث الناس و يعصرون .
و كما رأينا فإن المكان قد حمل كل هذه الأبعاد المختلفة و التي استنتجناها من قصة يوسف عليه
السلام.

فذكر المكان فيها اضطلع بمهمة جسمية باعتباره فضاء مؤثرا في سلوك الشخصيات
وممارساتها .

✓ و تارة يذكر المكان دون اسمه الصريح بل بصفة له . و منه قوله جل شأنه : " يا قوم ادخلوا
الأرض المقدسة التي كتب الله لكم و لا ترتدوا على أديباركم فتتقلبوا خاسرين" ¹ . و ذكر هذه
الصفة - الأرض المقدسة - " أبلغ من ذكر الإسم لأن من مقاصد القصة بيان قدسية تلك الأرض
من جهة و حفز بني إسرائيل على استرخاض ما يبذلون في سبيل دخولها " ² .

✓ و ساعة تذكر الأماكن دون تحديد ، و هي كثيرة في القرآن الكريم : كـ " المدينة " في قوله تعالى
: " و جاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين(20) اتبعوا من لا يسألكم
أجرا و هم مهتدون(21)" ³ . و منها أيضا " القرية " في قوله جل و جلاله : " فانطلقا حتى إذا
أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو
شئت لاتخذت عليه أجرا" ⁴ . فذكر المكان فيما سبق لازم لوقوع الحدث فيه . أما أين يقع فذلك
مما لا طائل من وراء معرفته و استقصائه لأن مناط الفائدة ما حملته القصة من عبر و دروس.

✓ و أحيانا تحيل الشخصية على المكان ، لأن القرآن و هو يعرض قصصه يورد شخصيات
تاريخية معروفة قد ذكرتها الكتب المقدسة من قبل أو حفظها تاريخ الجماعة التي عاشت فيها
فاقترن ذكر الشخصية بمكان عيشها . و نضرب له مثلا بقوله تعالى : " و إلى عاد أخاهم
هودا قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم أفلا تتقون" ⁵ . وقال
تعالى : " و إلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من
ربكم فأوفوا الكيل و الميزان و لا تبخسوا الناس أشياءهم و لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها
ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين" ⁶ . فبعد أن علم انتماء كل شخصية إلى قومها وإلى مكان عيشها
سهل بعد ذلك معرفته إن ذكرت الشخصية مجردة منه لأنها تحيل مباشرة على المكان .

1 المائدة ، 21 .

2 مأمون فريز جرار ، خصائص القصة الإسلامية ، ص 91 .

3 يس ، 20 ، 21 .

4 الكهف ، 77 .

5 الأعراف ، 65 .

6 الأعراف ، 75 .

✓ و قد يرد ذكر المكان مربوطا ببعض مظاهر الطبيعة كـ " مغرب الشمس " ، و " مطلع الشمس " و " بين السدين " . و كلها في قوله تعالى : " حتى إذا بلغ مغرب الشمس و جدها تغرب في عين حمئة و وجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب و إما أن نتخذ فيهم حسنا (86) قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا (87) و أما من آمن و عمل صالحا فله جزاء الحسنى و سنقول له من أمرنا يسرا (88) ثم أتبع سببها (89) حتى إذا بلغ مطلع الشمس و جدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا(90) كذلك و قد أحطنا بما لديه خبرا (91) ثم أتبع سببا (92) حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا (93) " ¹ . فبلغ ذو القرنين هذه الأماكن بتمكين الله سبحانه و تعالى ، " فأعطاه سلطانا و طيد الدعائم و يسر له الأسباب الثلاثة ؛ الحكم و الفتح و أسباب البناء و العمران و أسباب السلطان و سائرهما مما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه في هذه الحياة " ² . و لم يذكر الاسم الصريح لهذه الأمكنة لأن ذكرها صراحة لا يحمل كثير فائدة ، فمناط العبرة هنا حسن استعمال السلطة بعد التمكين ؛ فهذا العبد الصالح حكم بحكم الله في من قدر و سلط عليهم و منع الفساد و نصر المظلومين . و قرنت هذه الأماكن بمظاهر الطبيعية ليبدو لنا مدى تمكين الله لذي القرنين في الأرض و تذليلها له .

✓ كما نلتقي بأماكن غيبية نجدها ماثورة في غير موضع من قصص القرآن لا نعرف أين تقع و لا نعلم أي شيء عن تفاصيلها إلا ما ذكره القرآن الكريم عنها . و من أمثلتها قوله جل شأنه : " و قلنا يا آدم اسكن أنت و زوجك الجنة و كلا منها رغذا حيث شئتما و لا تقريا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين " ³ . فنحن لا نعلم أي جنة سكنها آدم قبل إنزاله إلى الأرض و فيها قال " أبو الحسن الماوردي في تفسيره : و اختلف الناس في الجنة التي سكنها - آدم و زوجته - على قولين ، أحدهما : أنها جنة الخلد و الثاني : أنها جنة أعداء الله تعالى لهما و جعلها دار ابتلاء و ليست هي جنة الخلد التي جعلها دار جزاء ، و الثاني : أنها في الأرض لأنه أمتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار ، و هذا قول ابن بحر ، و كان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم عليه الصلاة و السلام ، و الله أعلم بصواب ذلك ، هذا كلامه " ⁴ ، لأن هذه الجنة من المغيبات ، و قد أمرنا أن نؤمن بالغيب و التسليم بأخباره لأن الإيمان لا يتم إلا به و ليمتحن به ، لأن أشق شيء على النفس أن تؤمن بشيء لم تعينه ، و ذلك ليزداد الذين آمنوا إيمانا و يرتاب الذين أشركوا و الذين في قلوبهم مرض .

1 الكهف-86 - 93 .

2 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، م ، 4 ص 2290 .

3 البقرة ، 35 .

4 شمس الدين بن قيم الجوزية ، حادي الأرواح إلى بلاد الأفرح ، دار البيان الحديث ، ط1 ، 2002 ، ص 50.

ز. وظائف المكان :

و نجمل هنا بعضا لوظائف المكان التي عرضناها آنفا :

✓ أن لذكر المكان وظيفة تاريخية تثبتية كسبب انتقال بني إسرائيل من بادية الشام إلى مصر في قصة يوسف عليه السلام .

✓ و وظيفة إقتصادية حيث كانت - مثلا- مصدر لادخار الغذاء و احتياطه لسنوات القحط لتجاوز الأزمة في قصة يوسف عليه السلام .

✓ كما له وظيفة إهلاكية ، وذلك لاستلهاام العبرة و العظة من الأقوام الذين أهلكوا كإهلاك قوم لوط و صالح و الخسف بدار قارون... .

✓ و وظيفة إعجازية تبرز قدرة الله عزّ و جلّ كنقل عرش ملكة سبأ و شق اليم بالعصا ، و انبجاس الأرض بأحدي عشر عينا في قصة سيدنا موسى عليه السلام .

✓ كما أن ذكر المكان يحيل على الظواهر الحضارية و الثقافية حسب البيئات كبادية الشام و ما فيها و مصر الحاضرة و ما تعج به . وهي في قصة يوسف عليه السلام .

و من هذا و ذلك ، نقول بأن الأفضية المكانية قد وزعت بتساوق معجز كل هذا بحسب المقام التبليغي و الموقف الداعي له .

و بعد انتهائنا من عرض المقوم الأول من مقومات بناء القصة القرآنية و هو الحدث نعرض تباعا على عرض المقوم الثاني لها و هو الشخصية .

2: الشخصية في القصة القرآنية :

أ. طبيعة الشخصية القرآنية :

استلقت شخصيات القرآن من المنصرم من الزمن فانتخب منها الأقدر على التشخيص . فأشخاص القصص القرآني معروفون ثابتون تاريخيا لأن القصص قرآن و القرآن كله حق وصدق، إلا أنهم ليسوا مقصودين لذواتهم بإبراز معالمهم و كشف أحوالهم... ، بل يذكرهم كنماذج بشرية تعرض لتلمس العبرة من مواقفهم المتباينة .

فالشخصية في القصة القرآنية " إنما ينظر إليها بهذا الاعتبار الذي تؤدي فيه دورها كشاهد من شواهد الإنسانية في قوتها أو ضعفها و في استقامتها أو انحرافها و في هداها أو ضلالها ، وفي

رشدها أو في حكمتها أو سفاقتها... إلى غير ذلك مما تدرج تحته عوالم الإنسانية و تتشعب فيه مذاهب سعيها و مسلكها في مضطرب الحياة"¹ .

فنحن نقف على ملامح الشخصية القرآنية من خلال سلوكها و مواقفها اللذان تظهرهما الأحداث، فلو ذهبنا نفصل الشخصية عن الأحداث لألفيناها ذابلة آفلة لا حركة فيها و لا حياة ، كذلك لا يمكن تصور أحداث بلا شخصية لأنها هي من تبعث الحياة فيها فهي محور الأحداث تتأثر بها و تؤثر فيها.

ب. أبعاد الشخصية القرآنية :

ما تنفك الشخصية القرآنية - و هي تسير لنمذجة المثل الإنساني - أن تصطبغ بأبعاد بشرية لتكون حركاتها ماثلة غير مجردة لأن العبرة من الشخصية في مقوماتها الإنسانية ، فإما أن تكون خيرة فنهرع للإقتداء بها و إما أن تكون شريرة فنفر هاربين بارئين منها خائفين مما كان مصيرها .

و للشخصية القرآنية ثلاث أبعاد تظهر مقوماتها الإنسانية و هي :

1. البعد الجسدي :

نعني به تلك السمات الخلقية التي تكون عوناً للشخصية على أدائها لمهمتها ، فنقف على اختلاف متباين في إدراك هذه السمات كل حسب ما ركب عليه من دوافع الإيمان و الكفر .

و القوة هي " الصفة الجسمية الوحيدة التي رفع من شأنها القرآن في بناء الشخصية الإسلامية ، غير أنه لم يمتدحها بإطلاق بل قيدها بما يعطفها من المظهر الجسدي إلى المقوم العقلي و النفسي"² .

ومن أمثله قوله عز و جل في وصفه لسيدنا موسى عليه السلام : " و لما بلغ أشده و استوى آتيناها حكماً و علماً و كذلك نجزي المحسنين"³ .

فمرحلة الأشد هي ؛ بلوغ الغاية من القوة الجسمية و العقلية ، فبلوغ الأشد و الإستواء ما هما إلا مؤهلين مشروطين لتلقي الحكمة العلم عن الله .

1 عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآني ، ص 44 .

2 مصطفى عليان ، بناء الشخصية في القصة القرآنية ، دار البشير ، عمان الأردن ، ط1 ، 1992م ، ص19

3 القصص ، 14 .

و نجد ذكرا للبعد الجسدي أيضا في قوله تعالى : " قالت إحداهما يَاأبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين"¹ .

فلما سمع أبوها منها مقالتهما هذه قال لها: " و ما علمك بذلك ، قالت: إنه رفع الصخرة التي لا يطبق حملها إلا عشرة من الرجال و إنه لما جئت معه تقدمت أمامه فقال كوني من ورائي فإذا اجتنبت الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه"² .

و نلمس قوة موسى عليه السلام الجسدية كذلك في وكزه للقبطي فأرداه قتيلا ، و بجره لأخيه من لحيته كذلك .

و لعل الغرض من تأييد موسى عليه السلام بهذه القوة الجسدية هو دعوته لأعتى شخصية في ذلك الزمان و التي لا تؤمن إلا بالقوة المادية وهي فرعون ، و كذلك ليتمكن من السيطرة على شعب صعب المراس شديد المكر كشعب بني إسرائيل .

و من نحوه- البعد الجسمي- قوله تعالى : " قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم و الجسم و الله يؤتي ملكه من يشاء و الله واسع عليم"³ .

فلما اصطفى الله طالوتا ملكا على بني إسرائيل ليقاتلوا تحت لوائه أنكروا ذلك و قالوا أن فينا من هو أحق بالملك منه ، فرد الله عليهم بأن عدد لهم مقومين أساسيين يتوفران لطالوت و لا يتوفران لأحد منهم - وهما لازمان لقيادة الجيوش - و هما ؛ العلم و القوة الجسمية .

فالقوة الجسمية هنا- بالإضافة إلى العلم- تصلح لقيادة شعب كشعب بني إسرائيل لأن نفوسهم و طنت على عدم الخضوع إلا لمنطق القوة و لسطوتها .

و لعل أبرز شخصية قرآنية طفت بسماتها الخلفية على سطح القصة القرآني هي شخصية سيدنا يوسف عليه السلام لأنه أوتي شطر الجمال و هذا ما جعل فيه جاذبية أحبه أبوه لأجلها بالإضافة إلى نباهته و فطنته على الرغم من حداثة سنه ، فكان كل ذلك سببا لمكيدة إخوته له .

و حين استقر في منزل العزيز يراود هناك عن نفسه من امرأة العزيز و النسوة ، فهن لم يدركن إلا الصورة الظاهرية ليوسف عليه السلام وفيهن قال جل جلاله : " فلما رأيته أكبرنه و قطعن

1 القصص ، 26 .

2 ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ص 13-14 .

3 البقرة ، 247 .

أيديهن و قلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم(31) قالت فذلكن الذي لمتني فيه و لقد روادته عن نفسه فاستعصم (32)"¹ .

و بالمقابل من هذا لم ير فرعون من موسى إلا ظاهره ، فجعل من عدم إبانته عيبا ينتقصه به ، وفيه قال تعالى على لسان فرعون : " أم أنا خير من هذا الذي هو مهين و لا يكاد يبين(52) فلو لا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين(53)"² . فرعون يقصد ذلك العي الذي يصيب لسان موسى عليه السلام فتعتور فصاحته و إبانته .

فهذان معياران جسديان أحدهما للجمال و ثانيهما للقبح " رفع أحدهما من قيمة الشخصية به و حط الآخر منها به أيضا ، و كلاهما يمثل الرؤية الكافرة ؛ فجمال يوسف عليه السلام لم يحمله على الطغيان و لم يقعد قبح النطق بموسى عليه السلام عن الدعوة و تبليغها لفرعون و قومه "³ . و قد تتعرض السردية القرآنية لرسم سمات الجماعة أو القوم بكليتهم كقوله تعالى : " فأما عاد فاستكبروا بغير الحق و قالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم أشد منهم قوة و كانوا بآياتنا يجحدون"⁴ .

و كان قوم عاد " أعظم أهل زمانهم في القوة و الأجسام و الطول و الشدة كانوا عمالقة و أقوياء"⁵ . فهذه القوة و الشدة حملتهم على الكفر و الطغيان ، فقالوا من أشد منا قوة . لكن عذاب الله قريب من الظالمين ، فأرسل عليهم ريحا صرصرا فأذاقهم عذاب الخزي و الهوان . فالقوة في غير الحق مدعاة للظلم و الطغيان و الجزاء يكون الذل و الصغار لأنهم ما قدروها حق قدرها .

2. البعد الإجتماعي :

هو مجموعة المقومات التي تصنف الشخصية من خلالها في حالة اجتماعية ما ، و هي تتغير و تتطور- المقومات- لتتبعها الحالة الإجتماعية .

و لعل أبين شخصية متطورة و متغيرة اجتماعيا هي شخصية يوسف عليه السلام لأنه مرّ بعدة حالات اجتماعية ، ابتداء من طفولة سعيدة رغيدة في بيت نبوة فغمر حبا و حنانا ، إلا أنها لم تدم حين نعّصها حسد الإخوة ، فآل إلى غيابة الجب ، ثم بيع بثمن بخس دراهم معدودة ، واستترق

1 يوسف ، 31-32 .

2 الزخرف ، 52-53 .

3 مصطفى عليان ، بناء الشخصية في القصة القرآنية ، ص 18-19 .

4 فصلت ، 15 .

5 أحمد بهجت ، أنبياء الله ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، ط3 ، 2000م ، ص 55 .

في بيت العزيز ثم إلى فجوة السجن استقر ، و منه إلى مصيره المشرق الموعود على خزائن مصر أين يجتمع بأهله أجمعين . فما تتابعت هذه المقدرات على يوسف عليه السلام إلا لتمحصه و تصقله ليكون من عباد الله المخلصين .

فألجؤ إلى الله و الإستعصام به و الصبر و اليقين بموعود الله بالتمكين له كلها كانت سلوى يتسلى بها يوسف حين تردى إلى أسفل دركات الحالة الإجتماعية .

ففي فقره و صغاره لم يسخط على قضاء الله ، و في غناه و مكنته لم يتجبر و لم يطغ . فهذه هي الشخصية السوية التي أراد الله منها أن تكون مناطا للعبرة و للسلوى معا .

و في الجهة المقابلة نجد شخصية قارون الذي قال فيه تعالى : " إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم و آتيناها من الكنوز ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين" ¹ .

فلما فتح الله عليه و أكرمه ونعمه لم يقر ، بل قال إنما أوتيته على علم عندي ، فبغى على قومه وتجبر و تكبر ، فافتتن به ضعاف النفوس ، و لكن بعد أن أهلك و خسف بداره " أصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون و يكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا و يكأنه لا يفلح الظالمون" ² .

فكان قارون أنموذجا و عبرة لمن أطغته النعمة و فرح بمكانته الإجتماعية ، فبغى لكنه لقي وبال أمره و له عذاب أليم .

3. البعد النفسي :

هو ما يعترى النفس البشرية من خلجات و مشاعر و منازع و ردود أفعال داخلية أو خارجية- داخل النفس البشرية أو خارجها مع شخوص آخرين- إزاء مواقف معينة تبعا لدوافع الإيمان و الكفر .

فرسمها القرآن الكريم رسما دقيقا صادقا لأنه " كتاب الله خالق الإنسان و العليم بسره و نجواه و هو أقرب إليه من حبل الوريد ، لذا فإن المواقف النفسية في القرآن تمتاز بصدق الواقعية ، كما

¹ القصص ، 76 .

² القصص ، 82 .

تمتاز بعرض الموقف - إلى جانب صدقها الواقعي- بكونها تقدم نماذج إنسانية... ، فالمواقف تهدف إلى تربية الإنسان انطلاقاً من واقعه النفسي في مجرى حياته العملية "1 .

فقد حرص القرآن الكريم على عدم تزوير بشرية شخصياته المؤمنة و خاصة الأنبياء ، فعمد إلى رسم بعض الحالات النفسية و ما أثارته من ردود أفعال دون أن تقدر في عصمتهم صلوات ربي عليهم و سلامه .

و من الحالات النفسية التي صورها القرآن : النسيان و هو في قوله جلّ شأنه : " و لقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى و لم نجد له عزماً "2 . و قد نسي ما عهد الله به إليه " و ضعف أمام الإغراء بالخلود فاستمع إلى وسوسات الشيطان . و كان هذا ابتلاء من ربه له و من قبل أن يعهد إليه بخلافة الأرض ، و نموذجاً من فعل إبليس يتخذ أبناء آدم منه عبرة ، فلما تم الإبتلاء تداركت رحمة الله آدم فاجتباها و هداه "3 .

و منها تعلق النفس بالمحسوس و طلب كشف المغيب كما في قوله جل شأنه : " و إذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى و لكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً و اعلم أن الله عزيز حكيم "4 .

فهذا الدافع النفسي لم يخرم من إيمان إبراهيم عليه السلام ، و لم يشنع الله عز وجل عليه بطلبه هذا بل أراه الآية فاطمأن قلبه و أتلفت نفسه ببرد اليقين .

كما نجد الخوف في قوله تعالى : " و أن ألق عصاك فلما رآها تهتت كأنها جان ولى مدبراً و لم يعقب يا موسى أقبل و لا تخف إنك من الأمنين "5 .

فانقلبت عصا موسى ثعباناً يبتلع الصخر و الحجر و الشجر ، فلما رآها تبتلع كل شيء خافها ، لأن رؤية الشيء الخارق المهلك يبعث في النفس البشرية الروح و الفزع و أن لا عهد لموسى بهذا الانقلاب من عصاه ، فقد ألق الإتكاء عليها و الهشّ بها على غنمه ، و له فيها مآرب أخرى اعتاد عليها . ولكن بعد طمأنة الله عز و جل له سكن روعه .

1 عبد الحميد محمد الهاشمي ، لمحات نفسية في القرآن الكريم ، مكتبة رحاب ، الجزائر ، دط ، دت ، ص 103

2 طه ، 115 .

3 في ظلال القرآن ، م 4 ، ص 2353 .

4 البقرة ، 260 .

5 القصص ، 31 .

هذا بالإضافة إلى عدة مواقف نفسية مبثوثة في ثنايا القصص القرآني تتراوح بين القوة والضعف .

كما لم تهمل السردية القرآنية وصف بعض الخلال النفسية للشخصيات الكافرة . و هنا تطفو شخصية فرعون و التي نلتقي بها في عدة مواطن سردية . و لعل أهم خلة نفسية عرف بها هي ؛ الكبر و التعنت و عدم قبول الحق بعد إقامة الحجة .

قال تعالى على لسان فرعون: "إن هؤلاء لشردمة قليلون" ¹ .

و قال جل جلاله على لسانه: "لإن اتخذت إليها غيري لأجعلنك من المسجونين" ² .

وقال تعالى : " و نادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون(51) أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين(52) فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين(53) فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين(54)" ³ .

إن حيازة فرعون للملك و القوة جعلاه يتمرد و يعتو و يكفر و يستعلي... ، فمكانته الإجتماعية سبب في ما آلت إليه نفسيته ، فذهب يستخف بقومه و يستصغرهم حتى أطاعوه إلى الضلالة ، لأنهم رأوا فيه مثال الملك القادر القاهر والحكيم ، حتى أنه نصب نفسه إليها لهم .

ثم ذهب فرعون يعقد مقارنة بينه و بين موسى عليه السلام ، فاهتدى إلى أنه أفضل من موسى عليه السلام لأنه غني و فصيح و موسى حقير مهين و ضعيف لا ملك له و لا سلطان ولا يكاد يبين، " و هذا الذي قاله فرعون-لعنه الله- كذب و اختلاق و إنما حمله على هذا الكفر و العناد ، و هو ينظر إلى موسى عليه السلام بعين كافرة شقية ، و قد كان موسى عليه السلام من الجلالة و العظمة و البهاء في الصورة يبهر بها أبصار ذوي الأبصار و الألباب" ⁴ .

فالكبر و الإستعلاء نتيجة للملك و السلطان و سبب للكفر ، و الذي سيكون مصيره الندم لدى معاينته الغرق ، حيث لا يجد نفعا ، فنجاه الله ببذنه ليكون لمن خلفه آية .

1 الشعراء ، 54 .

2 الشعراء ، 29 .

3 الزخرف ، 52- 54 .

4 ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ص 1682 .

و من خلال ما سبق من عرض نقول : أن أبعاد الشخصية القرآنية قد عرضت عرضا وافيا دقيقا، بحيث فلم تزور إنسانيتها ، فتركت الشخصية تناسب على طبيعتها ، كل حسب ما ركبت عليه من دوافع و نوازع ، فبلغت القصد من سوقها و الهدف من إيرادها و هو: العبرة .

و بعد أن أنهينا عرض أبعاد الشخصية القرآنية نباشر بعده حصر أنواعها .

ج. أنواع الشخصيات:

تطالعنا الشخصية القرآنية منقسمة إلى ثلاثة أنواع : رئيسية ، ثانوية ، و هامشية .

1. الشخصيات الرئيسية :

الشخصيات الرئيسية هي " التي تسهم في صنع الأحداث أو تدور الأحداث حولها و من أمثلتها : آدم و إبليس و نوح و هود و صالح و شعيب و سليمان و ملكة سبأ و موسى و فرعون و يوسف..."¹ .

ف نجد - مثلا - في قصة يوسف عليه السلام أنه يظهر في كل المواقف بصفة مباشرة أو غير مباشرة من المقام الإستهلالي إلى المقام الإعتباري ، بمعنى أن السردية في قصته لم تسمح للأحداث أن تنصرم دون حضرته . و في التالي مسح تلمسي للشخصية اليوسفية ، فنراه حاضرا في كل المشاهد ، فنستل بعضها مثلا لا إجمالا .

و المتأمل في شخصيات هذه القصة يقف على أنها سخرت لأداء دور فني مهم و هو؛ إظهار جوانب خفية من شخصية يوسف عليه السلام ، بالإضافة إلى أقواله وأفعاله المباشرة .

1 مأمون فريز جزار ، خصائص القصة الإسلامية ، ص 79 .

الأيات	المقام القصصي	دور يوسف عليه السلام في المقام القصصي	صفة ظهور يوسف	غاية المقام القصصي
الآيات 03:	يستهل لك عز وجل الصورة مختصرا معجزة صلي الله عليه وسلم بان قصة يوسف عليه السلام من أحسن القصص.	يشير إلى يوسف عليه السلام في هذا المقام الإلهامى على أن دوره كان أساسيا في هذه القصة بل أن القصة باسمه و هو صانع أحداثها.	غير مباشرة	غاية المقام القصصي غاية كافي مقام إلهامى قصصي - التوثيق و استعراض آيات العالقي.
الآيات: 6-4	مقام حوارى بين يوسف العاقم و أبيه لعواء رؤيا وأما . فصارح الأب الحاقى إلى نصيح انه بعدم فسها على إخوانه ثم أردفها ببشرى اللوة	كان يوسف أحد طرفى الحوار . بل هو من ابتكار	مباشرة	الإصاح التوثيقى لما سؤزل إليه أحداث القصة لأنها تعبير لروايات يوسف عليه السلام.
الآيات 8-10	عجزة إجابة يوسف منه ومن أخيه كانت سبب الفخر عليه و الكبر له.	يوسف عليه السلام يشار منه ثم يتكلم عليه.	غير مباشرة	بيان سبب العبرة و المدد و تبيها.
الآيات 15-18	إتقان الحكمة . ثم التظاهر بالبراءة . لكن الأب الذى يربى في أمرهم . ثم يخوض أمره إلى الله عز و جل.	يؤارى في عجلة الحب عليه السلام.	مباشرة	إظهار مدى حد إجابة يوسف عليه السلام بامتثالهم حظههم . و جرتكهم على الكذب و التظاهر بالبراءة.
الآيات 19-21	إخراج السجدة ليوست من الحب ثم بيته - استرقا - إلى أن وصل إلى بيت العزيز و حصنه لإمرأته على إكرامه.	يخرج من الحب ثم يسترقى فوصوله إلى بيت العزيز.	مباشرة	إظهار مدى قوة صبر يوسف عليه السلام و خلفه بالرغم من تقل الواقع المبررة و التسويات المتأخرة لمل الحظنة . فكان عاقبة ذلك ظهور برأته و كشف مائلين زوجة لعزيز.
الآيات 23-29	مرادة امرأة العزيز ليوست و هيها به . لكنه نجا منها . ثم ظهور برأته و اكتشاف أمرها و ذلك بشهادة الذى هو من أهلها.	يراد يوسف عن نفسه ليستصم.	مباشرة	إظهار مدى قوة صبر يوسف عليه السلام و خلفه بالرغم من تقل الواقع المبررة و التسويات المتأخرة لمل الحظنة . فكان عاقبة ذلك ظهور برأته و كشف مائلين زوجة لعزيز.

42-43	الآيات 42-43	يوسف السجن يدعو إلى توحيد الله بالعبادة و يؤول الرؤى، و يوصي الناجي من السجن بأن يذكره عند ربه قنسي.	الدعوة إلى عبادة الله و توحيدة و تكوير الرؤيا و توصية الناجي.	مباشرة	مقام يظهر يوسف يبلغ رسالة ربه رغم ما يعانيه من ظلم الحكم و ظلمة السجن ، فكل هذا لم يقعد به عن تلبية مهمته.
49-46	الآيات 49-46	يطلب من يوسف تكوير رؤيا الملك فيجبرها و يردفه بحل حكيم.	تجوير رؤيا الملك و اقتراحه لحل إقتصادي ناجح.	مباشرة	إظهار معجزة يوسف عليه السلام في تكوير الرؤيا و حكمته في التفسير.
53-50	الآيات 53-50	الملك يطلب من يوسف لكنه يرجع للرسول و يحمله سؤالاً للملك عن النسوة اللاتي قطعن أبيدهن، فيخرفن و امرأة العزيز بعفة يوسف و براعته.	يوسف يرد الرسول و يحمله سؤالاً للملك.	مباشرة في الآية 50 غير مباشرة في باقي الآيات.	موقف يظهر صبر يوسف و حكمته في سبيل إظهار براعته.
55-54	الآيات 55-54	استخلص الملك ليوسف لنفسه ثم يسأله يوسف أن يحمله على خزائن الأرض.	يوسف يستخلص عونا للملك و يمن على خزائن الأرض.	غير مباشرة في الآية 54 و مباشرة في الآية 55 .	صبر يوسف و حكمته و علمه و عفاقه رشوه للملك و العز بعد الإسرقاق و السجن فأنجزه الله ما وعده وما أوحى إليه من قبل
92-57	الآيات 92-57	وصول إخوة يوسف إلى مصر للكيل لكن يوسف يرجعهم ثم يأخذ أخاه فيجوزن أبوهما عليهما ، لكنه لم يباش فيدفع أبناءه ليتحسوا من يوسف و أخيه فيتعرفون إلى يوسف هنا يتفرون بذئهم فيجدون أخاهم مسامحا لهم.	✓ منع إخوته الكيل. ✓ يأخذ أخاه معه. ✓ يصفح عنهم.	تراوحت بين مباشرة و غير مباشرة.	مكنة يوسف عليه السلام وقرته لم تمنعه من الصفا عن إخوته ، و تلك من شيم الأنبياء و الصالحين.
100-93	الآيات 100-93	يوسف يصحب قبيصة مع إخوته شفاء لأبيهم ، و يطلب منهم أن يحضروا أهلهم أجمعين، وقتلاً ينكشف أمر الإخوة ، لكن يعقوب عليه السلام يسامحهم، و تنتهي القصة بتكوير رؤيا يوسف عندما خر أهله له ساجدين.	✓ يعطي قبيصة لإخوته و يوصيهم بأن يحضروا أهلهم. ✓ تكوير إخوته و يرفعهما على العرش. ✓ ينتهي يوسف إلى تكوير ربه.	مباشرة في الآيات 93، 99، 100 و غير مباشرة في باقي الآيات.	معجزة يوسف في إثناء أبيه بئس الله و تكوير الرؤيا التي كانت السبب الرئيسي فيما لاقاه يوسف وما آل إليه.

2. الشخصيات الثانوية :

تتحرك الشخصيات الثانوية في إطار أضيق مما عليه الشخصية الرئيسية، إلا أن لها دورا فاعلا في سير أحداث القصة . و من أمثلتها : الملائكة في قصة سيدنا آدم عليه السلام ، و امرأة فرعون و شيخ مدين و ابنتاه و فتى موسى و العبد الصالح و شقيق يوسف عليه السلام ... هذا الأخير نستله لنتفحص معالم شخصيته ، وفيه قال تعالى : " إذ قالوا ليوسف و أخوه أحب إلى أبينا منا"¹ .

وقال جل شأنه أيضا : " وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون (60) قَالُوا سُرَّادُ عَنهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ(61)"² .

و قال سبحانه و تعالى: " فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتِلْ وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ(63) قَالَ هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(64) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ آخَانًا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ(65) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ(66)"³ .

وقال تعالى : " وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(69) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ(70)"⁴ .

هكذا يتم تدخل شخصية شقيق يوسف في هذه القصة بهذه الطريقة ، فلم نكد نرى حركاتها- الشخصية- ماثلة للعيان ، فهي ذات وجود معنوي لا غير، لأنها لم تحمل على عاتقها التدخل المباشر و الحضور الشخصي في مقامات السرد للقصة بل اكتفت أن يشار إليها بضمير الغائب ، " فهي غائبة و لكنها في الوقت نفسه حاضرة و لكن غير مرئية ،فهي عابرة و لكنها في الإلحاح السردى محور الحديث بين يوسف و إخوته و بين إخوة يوسف و أبيهم و بين هذا الشقيق - الذي لم

1 يوسف ، 08 .

2 يوسف ، 59-61 .

3 يوسف ، 63-66 .

4 يوسف ، 69-70 .

نسمعه يتكلم أو يتحرك أو يعترض – و بين يوسف و إخوته من جديد ، و بين يعقوب و أبنائه عندما رجعوا إليه دونه ، فإذا عيناه تبيض من الحزن أسفا على يوسف و عليه "1 .

كما كانت شخصية أخو يوسف المحفز على تنقل إخوة يوسف من مصر إلى بادية الشام ثم إليها . و من خلالها عرفنا شرعة من شرائع بني إسرائيل وهي في قوله تعالى : " قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ(74) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(75)"2 . أي من سرق يؤخذ بسرقتة .

و من هذا نقول : بأنه مهما كانت الشخصية الثانوية فهي غرزة ركيئة في نسيج حبكة القصة القرآنية .

2. الشخصيات الهامشية :

فهي التي " لم نكد نتبين من ملامحها و لا نرى لها دورا بارزا في مجريات القصة ، و إنما تمثل " خلفية للمشهد ، أو هي جزء من البيئة التي تجري فيها الأحداث و من أمثلتها : الرعاء في مدين في قصة موسى و أصحاب السفينة التي ركبها موسى و العبد الصالح و أهل القرية التي استطعماهما "3 .

و يشاكل هذا شخصية "السيارة" في قصة يوسف عليه السلام و هي في قوله جل شأنه:" وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ(19)وَسْرُوهُ بِئْسَ مَا بَخْسَ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ(20)"4 .

فالسيارة* من طبيعتها التنقل ، و ورودها الماء كان للسقيا أي أن دورها يخلو من القصديّة ، إلا أنها كانت سبيل خلاص يوسف عليه السلام من محنة الجب ، كما كانت واسطة نقله إلى مصر . لذلك نجد السيارة تختفي و كأنها سراب بقيعة مثلما ظهرت بعدما أدت دورا محدد الغاية .

و بعد ، فإن هذه المميزات التي اختص بها بناء الشخصية في القصة القرآنية " تظل منفردة في عمقها رفيعة في قيمتها ، عزيزة المنال في طلبها و محاكاتها سواء أوافقت مقاييس النقد الحديث في

1 خالد أبو جندي ، الجانب الفني في القصة القرآنية ، ص 139 .

2 يوسف ، 74-75 .

3 مأمون فريزجرار ، خصائص القصة القرآنية ، ص 79 .

4 يوسف ، 19-20 .

الحديث في رواجها أو كسادها أم خالفتها ، لأن هذه المميزات بهذا البناء خالدة خلود كتاب الله عزّ وجلّ ماضية في خلقه ما دامت السماوات والأرض ، تنزيل من حكيم حميد" ¹ .

ثالثا : أشكال القصة القرآنية :

يظهر القصص القرآني في شكلين هما : القصة المكتملة و القصة المفتوحة .

1. القصة المكتملة :

فالحديث في القصة القرآنية المكتملة - و هي غالبا ما تكون سيرة - " يكون نهائيا ، حيث يبادر الخطاب القرآني إلى ربط الحدث الديني المقرر و هو البعثة بوقائع حياة النبي المنتظر منذ الطفولة ليستمر شريط الأحداث متلاحقا مرهضا للحدث الأساسي - أي البعثة - لتمضي حياة الفاعل محكومة بوظيفة التبليغ و بمكابدات الصمود و الدعوة إلى الله" ² .

و لعل أوضح مثال يطابق هذا الشكل من القصص قصة سيدنا يوسف عليه السلام لأن أحداثها لم تستدع من مواطن سردية غيرها - سورة يوسف- .

فيوسف عليه السلام استشرفت له العناية الإلهية النبوة و المستقبل الطاهر استشرافا حلميا ، فساقته عبر وقائع و أطوار حتى انتهت به إلى أن رأى رؤياه واقعا .

فالحديث في هذه القصة " نهائي الحلقات السردية فيه يصل بعضه بعضا في تسلسل تصاعدي طبيعي ، و الوقائع متداعية وفق مبدأ السببية " ³ .

و بهذا التلاحم و التداخل بين أحداث أحسن القصص* أصبح من غير الممكن لفظ أو إسقاط أي حدث و لو كان طارئا على السرد ، و إلا انهدم و تصدع بناء القصة فتؤول إلى نهاية غير التي رسمت لها ابتداء .

فالحديث في قصة يوسف عليه السلام " ناضج و أعني بالحدث الفني الناضج أن كون الحدث ذا ثلاثة أجزاء متظافرة : بداية و توتر فيه إثارة و نهاية مفتوحة ، و أعني بالمفتوحة ؛ أن تسمح بتولد الحدث من الحدث ، و هذا الشكل للحدث يسمح له أن يسهم مباشرة في تنمية الفكرة العامة للقصة" ⁴.

1 مصطفى عليان ، بناء الشخصية في القصة القرآنية ، ص 90 .

*السيارة : رفقة تسير للسفر .

2 سليمان عشراي ، الخطاب القرآني ، ص 81 .

3 سليمان عشراي ، المجمع السابق ، ص 81 .

* نقصد بها: قصة سيدنا يوسف عليه السلام .

4 خالد أحمد أبوا جندي ، الجانب الفني في القصة القرآنية ، ص 148 .

فيطالعنا الحدث الناضج الأول من سورة يوسف عليه السلام متمخضا عن رؤيا ، و التي كانت سببا في تدبير مكيدة له من إخوته ، و هي نقطة التوتر في الحدث الأول ، منتهيا بمواراته في غيابة الجب ، و لم يقتل عليه السلام ، و ذلك ليفتح حدث آخر . فكان الرمي في البئر مسوغا فنيا لحدث البيع ثم الإسترقاق ، إضافة إلى إشعار فني ثان و هو في قوله تعالى : " فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"¹ . أي أن يوسف لن يموت من جراء المكيدة و أنه سيلتقي إخوته و يذكرهم بشنيع فعلتهم . و لو تتبعنا جميع أحداث قصة يوسف عليه السلام لأفيناها كلها تسير بهذه الوتيرة إلا الحادث النهائي الذي لا حدث بعده .

و لعل السر في إثارة الحدث للحدث " وفق العلية السببية يكمن في مراعاة قدرات الملتقي العقلية ، لأن السردية القرآنية نأت عن المباشرة في الحبكة الفني عندما جعلت كل حدث من أحداثها- ولو كان طارئا- يحمل التعليل المنطقي المقنع بحقيقة وجوده كنتيجة و سبب في أن واحد"² .

2. القصة المفتوحة :

لما كانت بنية القصص القرآنية المفتوح " متواترة في سياقات قرآنية عديدة كان الحدث في هذه البنى مفتوحا أيضا ، ذلك أن كل سياق قصصي قرآني إنما يتشكل في حيز نصي ما حول حدث أو أحداث معينة من حياة الفاعل ، و سواء أ جاءت تلك السياقات مكررة أم مستجدة "³ .

فالأحداث في هذا النوع من القصص ذات طبيعة تراكمية ، أي أن أحداث القصة مبنوثة في مواطن سردية مختلفة تشكل في مجموعها قصة متكاملة . فالقارئ يستدعي الأحداث من تلك المواطن السردية رابطا بين أجزاء القصة وفق تسلسل منطقي ، فيقف أخرا على قصة بأطوارها المختلفة .

و نسوق مثلا لهذا الشكل بقصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مستدعين أحداثها من عدة سور قرآنية . ففي سورة الأنعام * نجد رفض إبراهيم لآلهة قومه من الأصنام فأراه الله ملكوت السماوات و الأرض ليكون من الموقنين ، فخاصمه و حاجه قومه في دعوته الحقّة الداعية إلى توحيد الله وحده .

أما في سورة البقرة ** فيسأل إبراهيم عليه السلام ربه البينة عن كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه . ثم تعرّج بنا السردية القرآنية على سورة الأنبياء*** ففيها " أحالهم إبراهيم- بسخرية توقظ القلب- إلى كبير الآلهة و اتهمه بأنه هو الذي حطم الآلهة و طالبهم أن يسألوا الآلهة عن حطمها ،

1 يوسف ، 15 .

2 خالد أبو جندي ، الجانب الفني في القصة القرآنية ، ص 136 .

3 سليمان عشراني ، الخطاب القرآني ، ص 82 .

لكن الآلهة لا تتنطق ، كيف يعبد الناس ما لا ينطق و لا يعي حيث تهاوت الحجة و نهضت الكبرياء ، و حين أسقط دليلهم ميتا نهض العناد ، و تقرر إعدامه حرقا "1 ، فقال تعالى : " قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم (69) وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرسين(70) ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين(71)ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين(72) "2 .

و أما في سورة هود من - الآية 69 إلى الآية 76 - نقف على مجيء الرسل المكرمين مبشرين إبراهيم ، فقراهم بعجل ، فما لبثوا أن بشروا زوجته بإسحاق و يعقوب ، ثم نرى إبراهيم عليه السلام يجادلهم في قوم لوط .

و في سورة إبراهيم – من الآية 35 إلى الآية 41- يطالعنا إبراهيم بدعائه ربه بأن يؤمن بلده و أن يجنب ذريته عبادة الأصنام حيث أسكنهم بواد غير ذي زرع عند البيت الحرام ليقيموا الصلاة، و أن تهوي إليهم قلوب الناس بالرحمة و العون و أن يرزقهم من الثمرات .

أما في سورة الصافات – من الآية 83 إلى الآية 113 - فنلتقي ببعض الأحداث التي ذكرت في مواطن متقدمة لكن دون أن تعدم جديدا ، و تمثل الجديد في الإبتلاء العظيم و فيه قال تعالى : " فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ "3 .

هكذا ، وبعد لملمة الأحداث من مواطنها السردية المختلفة ثم عرضها وفق ترتيب منطقي نقف آخرا على قصة تعرض أطوارا من حياة هذا النبي العظيم ، مصطبغة بمكابدات الدعوة إلى الله و ما لاقاه من تكذيب و وعيد و تهديد ، وصولا إلى المآل الإعتباري ، الذي هو الهدف الأساس لهذه القصة .

كما لا يخفى على المتتبع لهذا النوع من القصص-المفتوح- ظاهرة تكرار بعض الأحداث في أكثر من موضع فهو " يظهر ما بدا لأول وهلة تكرار إنما هو يحمل إفادة جديدة أو يؤكد بعدا سرديا ما في وقائع حياة الفاعل"4 ، لأن الهدف من سوق القصص القرآني هو العظة و العبرة ، فكان المقام و الموقف يستدعيان ذكر أحداث معينة من حياة الفاعل لتتماشى مع سياق العبرة ، أي أن

1 أحمد بهجت أنبياء الله ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، ط3 ، 2000 ، ص 77 .

* نجد ذكرا لأحداث من قصة إبراهيم عليه السلام في الآيات 74-81 من سورة الأنعام.

** نجد ذكرا لأحداث من قصة إبراهيم عليه السلام في الآية 260 من سورة البقرة.

*** نجد ذكرا لأحداث من قصة إبراهيم عليه السلام في الآيات 51-71 من سورة الأنبياء.

2 الأنبياء ، 69-72 .

3 الصافات ، 102-106 .

4 سليمان عشراني ، الخطاب القرآني ، ص 82 .

الأحداث في القصة المفتوح و القصة القرآني عامة تذكر بقدر الحاجة إليها في تفعيل دورها الإعتباري ، فنرى الشخصية مع " حدث من الأحداث تتفاعل معه و تمضي به إلى غايتها في موقفه منها أو موقفها منه ثم ينتهي المشهد و يطوى الموقف حتى إذا مضى زمن - طال أو قصر- طالعنا وجه الشخصية من جديد مع حدث آخر يأخذ دوره معه ثم يمضي ، وهكذا "1 .

وكما رأينا ، فإن للقصة القرآنية شكلان تظهر فيهما هما : القصة المكتملة و القصة المفتوحة ، و كان اكتمال الأحداث في القصة في موضع سردي واحد ، أو انفتاحها- الأحداث- على مواطن سردية مختلفة هو أساس التقسيم .

رابعا : طرائق الإبتداء في القصة القرآني :

للقصص القرآني عدة طرائق للإبتداء ، كل حسب السياق الذي وردت فيه و المقام الداعي لها ومنها :

1. الإبتداء بملخص للقصة :

ففي هذه الطريقة تستهل القصة بملخص يجمل فحواها ثم يليه تباعا بسط و تفصيل لأحداثها وفق ما أجمل ابتداء . ومن أمثلة هذه الطريقة قصة أصحاب الكهف و هي في قوله تعالى: " أمْ حَسِبْتَ أَنْ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (09) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) فَضَرْبَنَا عَلَى أَذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا (12) "2 .

و بعد الإجمال الذي جاء في الآية التاسعة يأتي التفصيل حيث تتابع الأحداث ابتداء من اعتزال الفتية لقومهم فعزمهم الإيواء إلى الكهف ، أين ضرب على أذانهم و ما اعتراهم في فجوة الكهف ثم بعثهم الله من مرقدهم ، فحوارهم عن مدة مكوثهم في الكهف ، ثم إرسالهم لأحدهم لينظر لهم طعاما زكيا ، فانكشف أمرهم بأنهم الفتية الفارين بدينهم من قبل ، ثم أتاهاهم وعد الله الحق بتوفيقهم فتعظيم قومهم لهم بإتخاذ مسجد عليهم .

ويبدو لنا جليا مدى إسهام هذه طريقة في الإبتداء ، في شد انتباه المتلقي و تشويقه لما سيأتي به العرض من مفاجآت يجرها البسط و التفصيل . أما عن كيفية انبناء هذه الطريقة في الإبتداء فإنها مدفوعة بالمقام التبليغي ، أي متعلقة بمناسبة نزول هذه القصة و هي " سؤال قريش الرسول صلى

1 عبد الكريم الخطيب ، القصة القرآني ، ص 44 .

2 الكهف ، 9-12 .

الله عليه و سلم و من قبله يهود المدينة عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب...¹ . فلما كانت القصة بأحداثها و تفصيلاتها و شخوصها جوابا عن سؤال تقدمها استهلّت بجواب أجمل فحواها و عندئذ يبرد لهف السائل بعد وقوفه على الإجابة بصفة مجملّة، لكنه بعد ذلك يطلب التفاصيل و الإستزادة ، لأنه حديثا حقا عجيب .

2. الإبتداء بذكر تمهيد للقصة :

و في هذه الطريقة " تذكر عاقبة القصة و مغزاها ثم تبدأ القصة بعد ذلك من أولها و تسير بتفاصيل خطواتها"² .

و من نحو هذه الطريقة ؛ قصة سيدنا موسى عليه السلام في سورة القصص ، حيث تفتح السورة بإشعارات خاطفة تصف علو فرعون في الأرض و استضعافه لبني إسرائيل ، حيث لم يرقب فيهم إلا و لا ذمة ، إلا أن العاقبة و التمكين للمؤمنين و الهوان و الصغار للمتكبرين المفسدين ، و هي في قوله تعالى : " طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُم طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6) " ³ .

فتلت التمهيد أحداث توالى ابتداء من ميلاد موسى عليه السلام ، حيث تعاقبت الأحداث مفصّلة استهلّت من إرضاع أمه له ثم إلقائها له في اليم إلى التقاط آل فرعون له ، و حنان زوجة فرعون عليه ففراغ قلب أمه عليه ، و اقتصاص أخته لأثره على جنب و رفضه المراضع ، ليرد إلى أمه لتقر عينها به .

ثم انتقل بنا العرض إلى مرحلة أخرى من حياة موسى ، عندما بلغ أشده فأوتي الحكم و العلم ، فإذا به يستغاث من رجل من شيعته فوكز موسى عليه السلام عدو الذي من شيعه فأرداه قتيلا ، ثم عاود الإستغاثة مرة أخرى فكاد موسى عليه السلام أن يقتل الرجل الثاني المستغاث منه إلا أنه أحجم أخيرا ، و إذا به ينصح من رجل جاء من أقصى المدينة فقال: " يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21) " .

1 ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ص ، 1145 ، بتصرف .

2 سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص 181 .

3 القصص ، 1-6 .

فخرج موسى عليه السلام إلى أرض مدين ، فكان زواجه فيها بعشر حجج بعد أن سقا للمرأتين اللتين كانتا تذودان ، ثم سلك طريق العودة بأهله ، وهو " عائد ليلتقي في الطريق ما لم يخطر له على بال ليناديه ربه و يكلمه ويكلفه النهوض بالمهمة التي من أجلها وقاه و رعاه و علمه ورباه ، مهمة الرسالة إلى فرعون وملئه ليطلق له بني إسرائيل يعبدون ربهم لا يشركون به أحدا"¹، و قتنذ كلمة ربه وشرفه ليحمل مهمة التبليغ مؤزرا ببرهاينن مشدود العضد بأخيه .
فينطلق موسى للأداء ، لكنه يجد الصدود والتعننت والكبر من فرعون وجنوده فنبذهم الله في اليم ، فكانت فتلك عاقبه الظالمين .

فابتدأت سورة القصص بتمهيد اشتمل على بداية النبا ونهايته ثم تلتها تفاصيل و أحداث تراوحت بين البسط والإيجاز كل هذا مدفوع بالظروف التي صاحبت نزول الوحي الكريم بها ، " وهذه السورة مكية نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة والمشركون هم أصحاب الحول والجاه والسلطان"² .

لذلك - ربما - استهل الخطاب القرآني بقوله تعالى : " نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون"³ .

أي أننا نتلوا ونقص عليك يا محمد - صلى الله عليه وسلم - من نبأ و خبر موسى وما لاقاه من فرعون وجنوده بالحق لقوم معك آمنوا بك و آزروك و نصروك ، فكانوا كأصحاب موسى الذين اتبعوه ، ولكن العاقبة للمؤمنين وسيهزم جمع المشركين ويولون الدبر كما هزم فرعون وجنوده . فغرض التقديم - ذكر أول النبا و آخره- هو الإهتمام بأمر متقدم ، هو التسلية عن الرسول صلى الله عليه وسلم و أصحابه كون حالهم مثل حال من سيقص الوحي قصصهم مصداقا لقوله تعالى :
" و كل نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك و جاءك في هذه الحق وموعظة و ذكرى للمؤمنين"⁴ .

3. الإبتداء برويا :

ومثالها في قوله تعالى : " إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ"⁵ .

1 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، م ، ، ص 2689 .

2 سيد قطب ، المرجع السابق ، ص 2673 .

3 القصص ، 3 .

4 هود ، 120 .

5 يوسف ، 3 .

ففي هذه الطريقة تعرض الأحداث بنمطية متسلسلة من الطفولة إلى المآل الإعتباري المستشرق ابتداء ، و أول الأحداث الأساسية في سورة يوسف عليه السلام هي إلقاء إخوته له في الجب و ما تمخض عنه من مرادتهم لأبيه عنه ثم بيعه بعد إلقاءه في الجب ، فاسترقاقه ثم استقراره في بيت العزيز حيث يراد هناك عن نفسه من زوجة العزيز ، فخلوصه إلى السجن ، وعند خروجه منه جعل على خزائن الأرض بعد تأويله لرؤيا الملك ، فمآل إخوته و أبويه السجود له . فالرؤيا هنا بمثابة إشارة تقديمية و نظرة استشرافية لما ستؤول إليه الأحداث مثيرة لتساؤلات مفادها : ما تأويل رؤيا النبي يوسف ؟ و كيف تسجد الكواكب للبشر ؟ .

أسئلة و أشباهها جالت حينئذ في أذهان من تلقوها عن الرسول صلى الله عليه و سلم لأنهم - ربما- لمسوا مشاكلة بين حال يوسف عليه السلام و حالهم باعتبار أن السورة نزلت " بين عام الحزن بموت أبي طالب و خديجة - سندی رسول الله صلى الله عليه و سلم - و بين بيعة العقبة الأولى ثم الثانية والتي جعل الله فيها لرسول الله و للعصبة المسلمة معه و للدعوة الإسلامية فرجا و مخرجا بالهجرة إلى المدينة " ¹ .

وبعد الإجمال شرع في بسط أحداث قصة يوسف عليه السلام و عرضها ببنية معجزة وفق ما قدم لها استهلالا ، فوقف المتلقي على أجوبة لسؤالاته المتقدمة وقوفا نهائيا ، لأن مقتضى حاله روعي وقتئذ ، فاقتصر له قصصا شاكل حاله فوقع منه موقعا مؤثرا لاستشعاره المثالية الحالية ، فخلصت به إلى التسلية رحمة من الله ، قال تعالى : " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَبْصَارِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " ² .

4. الإبتداء مباشرة في القصة :

في هذه الطريقة تذكر القصة " مباشرة بلا مقدمات و لا تلخيص و يكون في مفاجأتها الخاصة ما يغني " ³ .

ونسوق لهذه الطريقة مثلا بقصة أصحاب الجنة و هي في قوله تعالى : " إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين (17) ولا يستثنون (18) فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون (19) فأصبحت كالصريم (20) ففتنادوا مصبحين (21) أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين (22) فانطلقوا وهم يتخافتون (23) أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين (24) وغدوا على حرد قادرين فلما رأوها قالوا إنا لضالون (25) بل نحن محرومون (26) قال أوسطهم ألم أقل لكم

1 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ص 1949 .

2 يوسف ، 111 .

3 سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص 182

لولا تسبحون (27) قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين (28) فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون (29) قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين (30) عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون (31)¹.

فبدأ مباشرة في عرض أحداث هذه القصة دون تلخيص أو تقديم سبقها ، إلا ما ذكر من العبارة الإنتقالية التي ربطت القصة بما قبلها و هي في قوله تعالى : " إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة"² .

و ملخص قصة أصحاب الجنة هي أن رجلا صالحا قطع أرضا فتعهدها بالرعاية و الإصلاح حتى قامت و استوت ، فجعل منها قسمة للمساكين ، فلما ورثه أبناؤه غيروا من بعده ، و عزموا وقت الجني بأن يحصدوها ليلا كي لا يطلع عليهم المساكين فيسألوهم ، فطاف عليها طائف و هم نائمون بأن أصابتها آفة سماوية فاحترقت ، و هم في عماية عما أصابها ، فأصبحوا مبكرين كما دبروا ينادي بعضهم على البعض أن يمضوا ما عزموا عليه ، لكنهم اندهشوا عندما انتهوا إليها فزعموا أنهم ضلوا السبيل إلى جنتهم ، إلا أنهم سرعان ما تيقنوا بأنها هي جنتهم بعينها ، هناك اعترفوا بجنايتهم و ندموا بعد أن حاقت بهم عاقبة المكر و التبييت فكان جزاؤهم وفاقا .

و لعل العلة في عدم التقديم لقصة أصحاب الجنة تكمن في طبيعة السياق الذي عرضت فيه فوجّه المقام طريقة عرضها ، فقد " سبق القصة الحديث عن المال و البنين و التكذيب فسبقت القصة كمثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة و أعطاهم من النعم الجسيمة و هي بعثة محمد صلى الله عليه و سلم إليهم فقابلوه بالتكذيب و الرد و المحاربة"³ .

فلم تحتج القصة إلى تقديم أو تلخيص ثم تفصيل و بسط بعده ، فجاءت الأحداث متوالية متسلسلة حاملة لمفاجآت زادت التشويق لما ستؤول إليه نهاية قصة أصحاب الجنة .

و مما سبق به العرض نقول : أن القصة القرآني فريد في منهجه ، كامل في خصائصه و مقومات بنائه و في مقاصده و غايته بصفة مطلقة ، لأن السردية القرآنية لم تغط مقوما من مقومات القصة حقه من العرض عرضا صادقا مخلصا من كل شائبة تشوب القصة الإنسانية من وهم الخيال ... ، فتعرض الشخصية متحركة في إطار الزمان و المكان بأسلوب معجز و بيان ساحر و ترسم -الشخصية- بأبعادها الإنسانية و ما يعترئها من مشاعر و دواخل تؤثر في موقفها كل حسب ما ركب عليه من دوافع الإيمان و الكفر لتكون ماثلة للعيان مثلا حقيقيا ، ليسهل استلهاهم العبرة منها لأنها الغاية الأساس من سوقها .

1 القلم ، 17-32 .

2 القلم ، 17 .

3 ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ص 1906 .

وبعد الإنتهاء من عرض المبحث الأول من هذا الفصل و الذي وقفنا فيه عند القصة القرآنية نخرج بعده على استقصاء ما تبقى من مفاهيم و مصطلحات بحثنا وهي البلاغة و المقام .

المبحث الثاني : البلاغة والمقام

I. البلاغة :

أ- مفهوم البلاغة:

1. البلاغة لغة :

قال صاحب لسان العرب في مادة "بلغ": " بلغ الشيء يبلغ بلوغا : و صل و انتهى»¹

2. البلاغة اصطلاحا :

لقد تعددت تعريف البلاغة عند النقاد و البلاغيين و الأدباء على مر عصور تطورها ،
و نحن هنا نذكر أهمها:

✓ تعريف علي بن أبي طالب(ت 40هـ):"البلاغة إفصاح القول عن حكمة مستغلفة و إبانه عن
مشكل"² .

✓ تعريف الحسن بن علي بن أبي طالب : " البلاغة إيضاح الملتبسات و كشف عوار الجهالات
بأسهل ما يكون من العبارات "³ .

✓ تعريف صحار العبدي (ت 40هـ) : " البلاغة: الإيجاز ، و الإيجاز : أن تجيب فلا تبطيء و أن
تقول فلا تخطيء "⁴ .

✓ تعريف محمد بن علي (ت125هـ):"البلاغة : تفسير عسير الحكمة بأقرب الألفاظ"⁵ .

✓ تعريف إبراهيم الإمام:" البلاغة الجزالة و الإطالة "⁶ .

✓ تعريف ابن المقفع : " البلاغة اسم جامع لمعاني تسري في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في
السكوت ، و منها ما يكون في الإستماع و منها ما يكون في الإشارة ، و منها ما يكون جوابا ،
و منها ما يكون ابتداء ، و منها ما يكون شعرا و منها ما يكون سجعا و خطبا ، و منها ما يكون
رسائلا ، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها و الإشارة إلى المعاني . و الإيجاز هو

1- ابن منظور ، لسان العرب ، م1 ، ج3 ، ص345

2- أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ت ، علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار عيسى الحلبي و شركاه ، ط1،
1971 ، ص58.

3- أبو عثمان الجاحظ ، البيان و التبیین ، ت ، درويش جويدي ، دار الجبل ، بيروت لبنان ، ط5 ، 1401هـ، 1981م ، ج1، ص245.

4- أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص58 .

5- ص58الحسن بن رشيق القيرواني ، العمدة ، ت ، محمد عبد الحميد ، دار الجليل ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1423هـ-2003م ،
ج1، ص68.

6 أبو عثمان الجاحظ ، البيان و التبیین ، ج1 ، ص58

البلاغة . و أما الخطب بين السماطين و في إصلاح ذات البين فالإكثار في غير خطل
و الإطالة في غير إملال" ¹ .

✓ تعريف خالد بن صفوان(1150هـ) : " البلاغة إصابة المعنى و القصد إلى الحجة "2.

✓ تعريف الخليل بن أحمد(ت175هـ) : "البلاغة ما قرب طرفاه و بعد منتهاه"3 .

✓ تعريف العتابي (ت219هـ): " كل ما أفهمك حاجته من غير إعادة و لا حبسه و لا استعانة فهو
بليغ"4 .

✓ تعريف أبو هلال العسكري (ت 395هـ) : " البلاغة كل ما تبليغ به المعنى قلب السامع فتمكنه
في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة و معرض حسن "5 .

✓ تعريف أبو يعقوب السكاكي(ت 626هـ): " البلاغة هي بلوغ المتكلم في تأدية المعنى حدا له
اختصاص بتوفيه خواص التراكيب حقها ، و إيراد أنواع التشبيه و المجاز و الكناية على
وجهها"6 .

و الملاحظ على هذه التعاريف أنها لا تحدد بوضوح مفهوم البلاغة فما " هي إلا أوصاف
للبلابة (أو للبليغ) لأن من خصائص التعريف في البحث العلمي أن يكون جامعا مانعا ، و في غاية
الدقة ، ثم إن هذه الأوصاف لا تمس إلا ناحية و جانبا واحدا منها ، علما أن للبلابة جوانب
و نواحي عدة .

و لعل أقرب تعريف يقترب من حد البلاغة هو تعريف أبو هلال العسكري لأنه يكاد يطابق
التعريف الإصلاحي التعارف عليه الذي سنذكره.

و في الحقيقة أن البلاغة تختلف باختلاف موصوفها ، و هما : المتكلم و الكلام فيقال : "هذا
الكلام بليغ و هذا متكلم بليغ ، و لا توصف بها الكلمة فلا يقال: هذه كلمة بليغة لعدم ورود السماع
بذلك" ⁷ .

1 أبو عثمان الجاحظ ، البيان و التبين ، ج 1 ، ص 78 ، 79 .
2 ابن رشيق القيرواني ، العمدة ، ج 1 ، ص 245
3 ابن رشيق القيرواني ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 145 .
4 أبو عثمان الجاحظ ، البيان و التبين ، ج 1 ، ص 77 .
5 أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص 16 .
6 أبو يعقوب السكاكي ، مفتاح العلوم ، ت ، عبد الحميد هنداوي ، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 2000 ، ص 520 .
7 أمين أبو ليل ، علوم البلاغة ، دار البركة ، عمان ، الأردن ، ط 1 ، 2006 ، ص 10 .

■ بلاغة المتكلم :

بلاغة المتكلم هي: " ملكة في النفس يقتدر بها صاحبها على تأليف كلام بليغ مطابق لمقتضى الحال مع فصاحته في أي معنى قصده"¹ .

■ بلاغة الكلام :

أما بلاغة الكلام فهي: "مطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحته"² .

و الحال: هو الأمر الذي يحمل المتكلم على أن يورد كلامه في صورة خاصة ، و الحال والمقام بمعنى واحد ، و سنفصل الحديث عنه لاحقا .

و مطابقة الكلام لمقتضى الحال هو: اشتماله على هذه الصور المخصوصة .

و نضرب مثالا على أقسام هذا التعريف بقولنا : " إن الصدق لمنجاة" . نقول هذا الكلام لمن ينكر عاقبة الصدق ، و إنكار المخاطب هو الحال أو المقام لأنه الأمر الذي دعانا أن نورد كلامنا مصورا بصورة التوكيد الذي هو مقتضى الحال ، و اشتمال الكلام على هذه الصورة المخصوصة هو المطابقة لمقتضى الحال . فهذا الكلام إذا كلام بليغ لأنه طابق مقتضى حال المخاطب .

أما الفصاحة فقد أورد الزمخشري في مادة "فصح" قوله : " سقاهم لبنا فصيحاً الذي أخذت رغوته أو ذهب لبأوه و خلص منه ، و فصح اللبن ، و أفصح و فصح ، و أفصحت الشاة: فصح لبنا ، و أفصح العجمي : تكلم العربية ، و فصح : انطلق لسانه بها ، و خلصت لغته من اللكنة"³ .

و الفصاحة عند أهل الإشتغال بها هي : " عبارة عن الألفاظ البينة الظاهرة المتبادرة إلى الفهم و المأنوسة الإستعمال لمكان حسنها ، و هي تقع و صفا للكلمة و الكلام و المتكلم و حسبما يعتبر الكاتب اللفظة و حدها أو مكبوسة مع أختها"⁴ .

ب- مراتب البلاغة :

فعلى قدر مراعاة المتكلم لمقتضيات المقامات يكون كلامه أبلغ و في النفوس أوقع ، لذلك نرى تفاوتاً بين مراتب البلاغة .

1 السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1414هـ-1994م ، ص31
2الإمام الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة ، ت، محمد الفاضلي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2004 ، ص16.
3 جار الله الزمخشري ، أساس البلاغة ، دار صادر ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1992 ، ص474 .
4 السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 07 .

و للبلاغة " طرفان : أعلى و أسفل متباينان تباينا لا يتراءى له نارهما ، و بينهما مراتب تكاد تفوت الحصر متفاوتة ، فمن الأسفل تبتدىء البلاغة ، و هي القدر الذي إذا نقص منه شيء التحق ذلك الكلام بما شبهناه من أصوات الحيوانات ، ثم تأخذ في التزايد متصاعدة إلى أن تبلغ حد الإعجاز و هو الطرف الأعلى و ما يقرب منه"¹ .

فأعلى المراتب في كلام الله تعالى المعجز - القرآن الكريم - ثم يليه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الله لأنه أوتي جوامع الكلم ، ثم يليه بعد ذلك مراتب تحوز السبق منها ما كان لمقتضيات الأحوال أرعى و للفصاحة أوفى .

2. المقام :

أ. مفهوم المقام :

1. المقام لغة :

قال ابن منظور في المقام ، " والمقام لغة : موضع القدمين"² .

و"المقام يكون مصدرا و اسم مكان القيام و زمانه"³ .

2. تطور مفهوم المقام :

و قد تطور المقام حتى انتهى إلى مفهومه الإصطلاحي المتعارف عليه ، و قد اشتق من أصله اللغوي السابق ، لأنه كان من "زيّ البلغاء أن يلقوا خطبهم و ينشدوا أشعارهم من قيام ، و من ثم قرنت العرب الكلام بالقيام ، فطفقت تقول : قام منشدا و قام خطيبا ، و قام فقال"⁴ .

و يعلل ابن رشيق لهذا القيام بقوله : " فأما قيامه (المتكلم) و جلوس صاحب اللحن فلأن هذا متشوف إليه يجب إسماع من بحضرتة بغير آلة و لا معين ، و لا يمكنه ذلك إلا قائما و ليدل على نفسه ، و يعلم أنه المتكلم ، دون غيره و كذلك الخطيب"⁵ .

1 أبو يعقوب السكاكي ، مفتاح العلوم ، 526 .

2 ابن منظور لسان العرب ، م ، ج ، ص 3781 .

3 محمد عبد الجليل ، تصور المقام في البلاغة العربية ، دار امعرفة ، مصر ، ط1 ، 2005 ، ص13 .

4 محمد عبد الجليل ، المرجع السابق ، ص 12 .

5 ابن رشيق القيرواني ، العمدة ، ج1 ، ص26 .

و أورد الزمخشري في مادة "قام" ما يلي: "و قام بين يدي الأمير بمقامة حسنة و بمقامات أي بخطبة أو عظة أو غيرها"¹ .

و لم يخل القرآن الكريم من ذكر المقام ، فنجد في قوله تعالى: "و اتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبير عليكم مقامي و تذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم و شركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى و لا تنظرون"² .

و يفسر فخر الدين الرازي المقام في هذه الآية فيقول: " و المقام بفتح الميم مصدر كالإقامة ، يقال أقام بين أظهرهم مقاما و إقامة ، و المقام بضم الميم : الموضع الذي يقام فيه"³ .

ففي الآية السابقة عطف نوح عليه السلام التذكير على المقام ، أي أنه إن كان يذكرهم و يعظهم قائما ، و إما قصد مقام التذكير قصدا مباشرا . و على كل حال فإن كلا من التفسيرين يدل على أن للمقام أصل في القرآن الكريم .

كما نجد للمقام ذكرا في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، و ذكره يوم بدر حيث " كان في الأسرى سهيل بن عمر أسره مالك بن الدخشم الأنصاري ، فلما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم ، قال عمر بن الخطاب : دعني أنزع ثنيتيه يا رسول الله فلا يقوم عليك خطيبا أبدا - و كان سهيل أعلم السفلى- فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دعه يا عمر فسيقوم مقاما تحمده عليه"⁴ . فكان مقامه ذلك عند موت النبي صلى الله عليه وسلم ، عندما ارتجت مكة و كاد أهلها أن يرتدوا، فقام سهيل بن عمر على باب الكعبة خطيبا ، فذكرهم بدعوة الرسول عليه الصلاة و السلام و جهاده لإعلاء كلمة التوحيد ، و ذكر أيضا ببشائره - عليه الصلاة و السلام - بفتح فارس و الروم و غيرهما والتي رأوا بعضها فأمسك الناس عن الردة .

و لم يكن مقام سهيل بن عمر " ليقصر على هذه الكلمات و لم تكن هذه الكلمات التي كانت من سهيل بمنأى عن المقام ، وإنما دلت على أن المقام يشمل الظروف الحافة و الملابسات المخالطة و الكلام المرتبط بها و الصادر عنها مرهون الدواعي بزمانه موصول الأسباب بمكانه"⁵ .

و قد ذهب طائفة من المحققين إلى أن أول من ساق المثل العربي المشهور: "لكل مقام مقال" هو طرفة بن العبد في قوله:

1 ابن رشيبي القيرواني ، العمدة ، ج1 ، ص26 .
2 جار الله الزمخشري ، أساس البلاغة ، ص529 . يونس ، 71 .
3. يونس ، 71 .
4 فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، م9 ، ج12 ، ص115 .
5 محمد عبد الجليل تصوير المقام في البلاغة العربية ، ص17
* و تعزوه طائفة إلى الحطيئة ، و ذكر البيت بلفظ " تحنن علي..."

تصدق علي هداك المليك ***فإن لكل مقام مقالا * [بحر المتقارب]

3. المقام اصطلاحا :

تعددت صيغ تعريف المقام ، إلا أنها جميعا تصب في معنى واحد ، هو محل إجماع بين البلاغيين .

فقال حمادي صمود في شأنه بأنه : "جملة من المستخلصات العملية توجه المتكلم إلى الطريق التي يجب اتباعها في صناعة الكلام"¹ .

و يتداول كثير من علماء البلاغة التعريف القائل بأن المقام هو: "الأمر الحامل للمتكلم على أن يورد عبارته على صورة مخصوصة دون أخرى"² .

كما تواترت مصطلحات مرادفة للمقام – تكاد تطابق معناه الإصطلاحي- وهي : "الموضع" و "الحال" و "الأقدار" و "المقدار" و "المشكلة" و "المطابقة" .

و أقل حد للمقام هو كل كلام مفيد "فلكل كلمة مع صاحبته مقام و لكل حد ينتهي إليه الكلام مقام . و ارتفاع شأن الكلام في باب الحسن و القبول و انحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به"³ .

ب. عناصر المقام :

للمقام عنصران : غرض و مخاطب .

1. الغرض :

و هو الإطار العام الذي يوجه الكلام بأن يورد بصفة مخصوصة ، فصفة الكلام تكون وفقا للغرض المقصود ، فلكل غرض من أغراض الكلام تركيب يناسبه و " لا خير في كلام لا يدل على معنك و لا يشير إلى مغزاك و إلى العمود الذي إليه قصدت و الغرض الذي إليه نزلت"⁴ .

فلكل مقام مقال ، و مقامات الكلام في الأغراض متفاوتة " فمقام التنكير يباين مقام التعريف و مقام الإطلاق يباين مقام التقييد و مقام التقديم يباين مقام التأخير و مقام الذكر يباين مقام الحذف ،

1 حمادي صمود التفكير البلاغي عند العرب ، المطبعة الرسمية التونسية ، دط ، 1981 ، ص 208 .
2 عبد اللطيف شريفي ، زبير دراقي ، الإحاطة في علوم البلاغة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، دط ، 2004 ، ص 12
3 أبو يعقوب السكاكي ، مفتاح العلوم ، ص 256 .
4 أبو عثمان الجاحظ ، البيان و التبيين ، ج 1 ، ص 79 .

و مقام القصر يباين خلفه و مقام الفصل يباين مقام الوصل و مقام الإيجاز يباين مقام الإطناب و المساواة"¹ .

و نذكر هنا مثالا عن الإطالة و الحذف ساقه الجاحظ فقال: " و الإيجاز ليس يعني به قلة عدد الحروف و اللفظ ، و قد يكون الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار* فقد أوجز و كذلك الإطالة، و إنما ينبغي له الحذف بقدر ما لا يكون سببا لإغلاقه ، و لا يردد و هو يكتفي في الإفهام بشرطه فما فضل عن المقدار هو الخطل "² .

2. المخاطب :

المخاطب " عنصر من عناصر المقام ، و هو اقتضاء الموقف ، و قد أولاه البلاغيون عناية بها خليق بما أسموه مراعاة حال المخاطب ، و هو المستمع الذي عناه العاني بما صدر عنه من مقال ، و هو الذي حضي بالإهتمام من مقام شارك فيه و أعان عليه ، إلى مقال قيل فيه و وجه إليه"³ .

و مراعاة حال المخاطب و منزلته هي مراعاة لمقتضى الحال ، و إن كان ذلك كذلك ، كان الكلام بليغا .

و في هذا المعنى قال بشر بن المعتمر : " ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني و يوازن بينها و بين أقدار المستمعين و بين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما و لكل حالة من ذلك مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني و يقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات و أقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"⁴ .

فخطاب الخاصة - مثلا - ليس كخطاب العامة و خطاب الملوك يباين خطاب المملوكين... ، و كذا خطاب كل فئة لا يماثله خطاب فئة أخرى . و لكن إن أمكنك أن " تبلغ من بيان لسانك و بلاغة قلمك و لطف مدخلك و اقتدارك على نفسك على أن تفهم العامة معاني الخاصة و تكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهاء و لا تجفوا عن الأكفاء فأنت البليغ التام"⁵ .

و بالمقابل ، فعلى المخاطب أن يحسن الإستماع لذلك قال الحكماء: "كن إلى الإستماع أسرع منك إلى القول" و "إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول" و " تعلم

1 الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ص 16 .
2 أبو عثمان الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ت ، عبد السلام هارون ، دار مصطفى البالي الحلبي ، مصر ، ط2 ، 1384هـ - 1965م ، ج1 ، ص91 .
3 محمد عبد الجليل ، تصور المقام في البلاغة العربية ، ص 36 .
4 أبو عثمان الجاحظ ، البيان و التبيين ، ج1 ، ص 92 .
*طومار أو الطوماز: هو الصحيفة.
5 أبو عثمان الجاحظ ، البيان و التبيين ، ج1 ، ص 91 .

حسن الإستماع كما تتعلم حسن القول ، " و قالوا : " رأس الأدب كله حسن الفهم و التفهم و الإصغاء للمتكلم " .

و في هذا قال الجاحظ : " لا تقبل بحديثك على من لا يقبل عليك بوجه"¹ .

و قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "حدث الناس ما حدجوك بأسماعهم و لحظوك بأبصارهم ، فإذا رأيت منهم فترة فأمسك"² .

و يرتبط المقال بالمقام ارتباطا جدليا تحكمه النسبية ، و مؤدى ذلك انعدام وجود بلاغة مطلقة ، و لعدم توفر قوائم قيمية جاهزة للكلام تصلح لكل موضع و حال . إلا أساليب القرآن الكريم لأنه معجز بلفظه و معناه ، و صالح لكل مكان و آن ، و تليه أحاديث الرسول صلى الله عليه و سلم لأنه أوتى جوامع الكلم فلا ينطق عن الهوى .

و إذا كان الكلام مكتوبا فله مقام عام و مقامات أخرى جزئية و مقامات أصغر منها حتى ينتهي إلى أصغر مركب لفظي مفيد ، فقليل: " لكل كلمة مع صاحبها مقام"³ .

و هذا ما سنتعرض له بالدراسة في القسم التطبيقي من هذا البحث ، و الذي سنشرع فيه تباعا في الفصل الثاني ، بعدما أوفينا هذا الفصل النظري حقه من العرض .

1 أبو عثمان الجاحظ ، البيان و التبيين ، ج1 ، ص 72 .
2 المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
3 الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ص 16 .

الفصل الثاني

بلاغه مقامات القص في سورة يوسف عليه السلام

تمهيد:

و لكي لا يكون بحثنا هذا مجرد أحكام جاهزة نلقي بها جزافا ، سنعمد إلى إجراء دراسة تطبيقية في هذا الفصل والتي سنزاج فيها بين منهج دراسة القصة وبين الإجراء المقامي، و التي سنعمد فيها إلى تقسيم قصة يوسف عليه السلام إلى مقامات معتمدين على تطور الأحداث فيها أي بناء على الحكمة فيها .

و التي سنستدل بها – الحكمة- على بلاغة القصة من حيث مطابقة مقامتها لمقتضى أحوال المخاطبين فيها و بها في كل أطوارها و تفضيلاتها . محاولين التدليل من خلالها على إعجاز القصة القرآنية بملاءمة خطاباتها لمقتضى الأحوال .

و قد اخترنا لهذه الدراسة التطبيقية متنا قرآنيا و هو سورة يوسف عليه السلام .

المبحث الأول : سورة يوسف ومقامها العام

1. التعريف بسورة يوسف عليه السلام :

سورة "يوسف" : هذا هو اسمها الوحيد ، و سبب تسميتها بهذا الإسم هو اشتغالها على قصة يوسف عليه السلام كاملة حيث لا نجد لقصة سوى قصته أثرا فيها ، و لا نجد لقصته أثرا في غيرها .

و سورة يوسف مكية " نزلت بعد سورة هود"¹ ، و هي "مائة و إحدى عشر آية ، و عدد كلماتها : ألف و تسعمائة و ست و تسعون كلمة ، و عدد حروفها : سبعة آلاف و مئة و ست و ستون حرفا"² . و رقمها في ترتيب المصحف الشريف هو : الثاني عشر.

2. المقام العام لقصة يوسف عليه السلام :

فلا ينفك ذكر المقام العام لقصة أو سورة يوسف عليه السلام عن ذكر سبب نزولها ، فما هو – سبب النزول- إلا "سؤال أو استفسار أو استيضاح أو استبيان أو واقعة أو حادثة أو قصة أو حكاية وقعت و نزل القرآن من أجلها ، مجيبا عنها ، مفصلها لها ، مؤصلا لحكم الله فيها ،

¹ سيد قطب ، في ظلال القرآن ، م4 ، ج12 ، ص1949 .

² أبو حفص عمر الدمشقي الحنبلي ، الباب في علوم الكتاب ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ على محمد عوض ، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1419هـ-1998م .

و يشترط في سبب النزول أن ينزل القرآن من أجله و سببه أولاً ، و أن ينزل القرآن زمن وقوعه
ثانياً¹ .

و عن سبب نزولها يقول عون بن عبد الله : " ملّ أصحاب رسول الله ملة ، فقالوا : يا رسول
الله حدثنا ، فنزل الله تعالى : الله نزل أحسن الحديث الآية ، قال ، ثم أنهم ملوا ، ملة أخرى فقالوا :
يا رسول الله فوق الحديث و دون القرآن ، يعنون القصص ، فأنزل الله تعالى " نحن نقص عليك
أحسن القصص " ، فأرادوا الحديث فدلهم عن أحسن الحديث ، و أرادوا القصص فدلهم على
أحسن القصص"² .

و أما عن سبب نزولها على هذا الشكل القصصي الخاص - التطويل و الإطناب - هو أن
قريشا كانت مولعة بسماع القصص الطوال و كان النضر بن الحارث يتمتعم بروايتها ، و كان
"يتردد على الحيرة فتعلم أحاديث "رستم" و أسفنديار" من أبطال فارس ، فكان يحدث قريشا
بذلك ، و يقول لهم : أنا و الله أحسن حديثاً من محمد فهلم أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم
بأخبار فارس ، فكان ما في بعضها من التطويل على عادة أهل الأخبار من الفرس يموم به
عليهم، بأنه أشبع للسامع ، فجاءت هذه السورة على أسلوب استيعاب القصة ، تحدياً لهم
بالمعارضة"³ .

هذا عن الأسباب المباشرة لنزول الوحي بهذه السورة القصة ، لكن هناك أسباب عامة يشترك
فيها جميع القصص القرآني:

فالأول : " أن الكلام إذا طال في تقرير نوع من أنواع العلوم ، فربما حصل نوع من أنواع
الملالة ، فإذا انتقل الإنسان من ذلك الفن إلى فن آخر انشرح صدره و طاب قلبه ، و وجد في
نفسه رغبة جديدة و قوة حادثة و ميلاً قويا"⁴ ، لذلك تراوحت أساليب القرآن بين الترهيب
و الترغيب مرة ، و أخرى بذكر آيات الأحكام ، و ثالثة بسوق الأمثال و القصص .

و الثاني : أن في ذكر قصص الأنبياء السالفين ، عبرة و تسلية للرسول صلى الله عليه و سلم
و للعصبة المؤمنة معه ، فهي سلوى لأنفسهم ، لأنهم يلتمسون في قصصهم مثلية في المآل ،
فتتلج صدورهم ، و ينزاح همهم و حزنهم و غمهم .

1 غازي عناية ، أسباب النزول القرآني ، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، ص1 ، 1407هـ-1987م ، ص13 .
2 علي بن أحمد الواحدي ، أسباب النزول ، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1991 ، ص155 .
3 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، الدار التونسية لنشر ، تونس ، دط ، 1984 ، ج12 ، ص199 ، 200 .
4 فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، م9 ، ج17 ، ص114 .

و الثالث : "أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص و علموا أن الجاهل و إن بالغوا في إيذاء الأنبياء المتقدمين ، إلا أن الله قد أعانهم بالآخرة و نصرهم ، و أيدهم و قصب أعدائهم فكان سماع هؤلاء الكفار لأمثال هذه القصص سببا لانكسار قلوبهم و وقوع الخوف و الوجل في صدورهم ، حينئذ يقللون من أنواع الإيذاء و السفاهة"¹ .

كل هذه الأسباب تضافرت فكانت مقاما عاما وجه موضوع سورة يوسف عليه السلام ، مراعية حال الخاطبين ، فطابقت مقتضى الحال مطابقة مطلقة ، فكانت بحق : أحسن القصص .

المبحث الثاني: مقامات القص في سورة يوسف عليه السلام :

فكما كان لقصة يوسف عليه السلام مقاما عاما رسم إطارها الشامل ، كان لها مقامات جزئية تكاملت و تداخلت فأنتجت هذه القصة .

و نحن إذ نستعرض هذه المقامات الجزئية ، فإننا نتناولها من جهة الحبك فيها ، أي أننا نقسمها وفقا للحبكة البسيطة المعروفة - التي يتحكم فيها تطور الأحداث - والتي تشتمل على الوضع الابتدائي أو الإستهلالي ثم تتطور الأحداث و تتصارع الشخصيات حتى تنتهي بوضع متأزم هو العقدة ثم يليه الوضع الإنفراجي حيث تحل فيه العقدة و يفرج التأزم ، بالإضافة إلى موضع الإعتبار وهو ؛ جملة الدروس والعظات المستخلصة من القصة .

1. **المقام الإستهلالي (الابتدائي) :** و ينقسم هذا المقام بدوره إلى مقامين جزئيين .

أ. **المقام الإستهلالي التمهيدي:**

و يمتد هذا المقام من أول السورة إلى الآية الثالثة ، و هو في قوله تعالى: "الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(1) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(2) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ(3)"² .

فقد افتتحت هذه السورة بالحروف المقطعة و هي "الر" و ذلك "بيان لإعجاز القرآني و أن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، هذا مع أنه تركب من هذه الحروف التي يتخاطبون بها"³ .

1 فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، م9 ، ج17 ، ص117 .

2 يوسف ، 1-3 .

3 ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ص82 .

فعرّض بهذه الحروف ؛ أن قريشا لا تستطيع أن تأتي أو حتى تفهم معنى هذه الحروف فكيف بها أن تأتي بسورة أو قصة مثل السورة التي تستذكر بعد هذه الحروف . و هي إشارة ضمنية إلى أن القصص الذي يروونه مجرد أباطيل و أساطير لا ترتقي أن تضاهي قصص القرآن .

و الملاحظ على السور المستهلة بهذه الحروف المقطعة أنه يذكر بعدها مباشرة الإنتصار للقرآن و بيان إعجازه و عظمته ، وهذا ما سنستبينه من تمام الآية الأولى في قوله تعالى : " تلك آيات الكتاب المبين" . ف"تلك" إسم إشارة ، إشارة إلى آيات سورة يوسف عليه السلام و أحداث قصته ، و أشير إليها بإسم الإشارة البعيد لكون وقائع قصة يوسف عليه السلام بعيدة من حيث الزمان و المكان .

فالكتاب المبين هو القرآن الكريم ، و إنما وصف بالمبين فلوجه:"الأول: أن القرآن معجزة قاهرة و آية بينة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، و الثاني: أنه بين الهدى و الرشد و الحلال و الحرام و لما بينت هذه الأشياء فيه كان الكتاب ميينا لهذه الأشياء ، و الثالث: أنه بينت فيه قصص الأولين و شرحت أحوال المتقدمين"¹ .

و قصة يوسف عليه السلام قد بينها هذا الكتاب المبين مفصلا إياها على أحسن الأساليب .

ثم تلا هذا الوصف-المبين- قوله تعالى: " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"² .

فقد صدّرت هذه الآية الكريمة بأداة التوكيد "إن" و ذلك لتأكيد الخطاب للمشركين الذين أنكروا أن يكون القرآن منزلا من عند الله جلّ و علا .

و هذه الآية "استئناف يفيد تعليل الإبانة من جهتي لفظه و معناه ، فإن كونه قرآنا يدل على إبانة المعاني لأنه جعل مقروءا إلا لما في تراكيبه من المعاني المفيدة للقارىء ، و كونه عربيا يفيد إبانة ألفاظه للمعاني المقصودة للذين خوطبوا به ابتداء و هم العرب إذ لم يكونوا يتبينوا شيئا من الأمم التي حولهم لأن كتبهم كانت باللغات غير العربية"³ .

1 فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، م9 ، ج17 ، ص68 .

2 يوسف ، 2 .

3 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج12 ، ص201 .

ثم يؤكد سبحانه و تعالى بأنه أنزل القرآن بالعربية " لأنها أفصح اللغات و أبينها ،
و أوسعها، و أكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس"¹ .

و لما كان القرآن بلغة العرب الذين كانوا يعتدون بفصاحتهم و بلاغتهم و تمكنهم من أساليب
العربية و أفانينها جاء ليتحداهم فيما يجيدون و يحسنون ، فبهتوا على الإتيان بمثله ولو بأقصر
سورة منه .

أما قوله جل شأنه : " لعلمك تعقلون " ، فقد احتج الجبائي بها. لعلمك - فقال: " لعل يجب حملها
على الجزم"² ، أي إنا أنزلناه قرآنا عربيا لتعقلوا معانيه في أمر الدين بالنسبة للمسلمين، بالإضافة
إلى "رجاء حصول العلم لكم-المشركين- من لفظه و معناه لأنكم عرب ، فنزوله بلغنكم مشتملا
على ما فيه نفعكم هو سبب عقلكم ما يحتوي عليه . و عبّر عن العلم بالعقل للإشارة إلى أن دلالة
القرآن على هذا العلم قد بلغت في الوضوح حد أن ينزل من لم يحصل له العلم منها منزلة من لا
عقل له و إنهم ما داموا معرضين عنه فهم في عداد غير العقلاء"³.

ثم يتوالى التمهيد لهذه القصة بقوله جل ذكره: " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْعَافِينَ"⁴ .

فافتتحت هذه الآية بضمير العظمة "نحن" للتنبؤ بالخبر الذي سيساق باعتباره من عند العظيم
تبارك و تعالى فوجب عندئذ استرعاء الإنتباه له بما هو أهل له .

و في هذه الآية يقول جار الله الزمخشري " كأنه قيل نحن نقص عليك أحسن الإقتصاص
هذا القرآن بإيجازنا إليك ، و المراد بأحسن الإقتصاص أنه اقتص على أبداع طريقة و أعجب
أسلوب ، ألا ترى أن هذا الحديث مقتص في كتب الأولين و في كتب التواريخ و لا ترى
اقتصاصه في كتاب منها مقاربا لاقتصاصه في القرآن . و إن أريد بالقصص المقصوص فمعناه
: نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث ، و إنما كان أحسنه لما يتضمن من العبر
و النكت و الحكم و العجائب التي ليست في غيره . و الظاهر أنه أحسن ما يقتص به في بابهِ"⁵ .

1 إسماعيل بن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ص 974 .

2 فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، م، 9، ج18، ص69.

3 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج12 ، ص202 .

4 يوسف ، 3 .

5 جار الله الزمخشري ، الكشاف ، 441 .

ثم وجه الخطاب إلى محمد صلى الله عليه وسلم فقليل له: " و إن كنت من قبله لمن الغافلين " أي أنك يا محمد - صلى الله عليه وسلم - كنت جاهلا و غافلا عن قصصه عامة و قصة يوسف خاصة . و " نكته جعله من الغافلين دون أن يوصف وحده بالغفلة للإشارة إلى تفضيله بالقرآن على كل من لم ينتفع بالقرآن ، فدخل في هذا الفضل أصحابه و المسلمين على تفاوت مراتبهم في العلم"¹ .

و عود على بدء ، فوصف آيات الكتاب بالبعيدة زمانا و مكانا هو ما جعل الرسول صلى الله عليه و سلم من الجاهلين لها و الغافلين عنها حتى جاء الخبر من الله سبحانه و تعالى بها .

و العلاقة بين الآية الثانية و الأولى هي أن الثانية محتواه في الأولى لأن إنزال القرآن يشتمل ذكر قصة أحسن القصص و هي قصة يوسف عليه السلام و هذه الآيات الثلاث السابقة هي " مقدمة طبيعية لما جاء بعدها مباشرة من البدء في قصة يوسف عليه السلام"² .

و إلى هنا ينتهي الجزء الأول من المقام الإستهلالي و الذي وسمناه بالمقام الإستهلالي التمهيدي ، و يليه مباشرة الجزء الثاني و هو : المقام الإستهلالي البدئي .

ب. المقام الإستهلالي البدئي:

و قد و صفناه بالبدئي لأن منه تبدأ قصة يوسف عليه السلام الفعلية ، و هو استهلالي لأنه لم يفصل فيه عرض قصة يوسف ، بل ذكرت فيه بصفة مجملة ، ملخصة في " رؤيا يوسف عليه السلام و ما فهمه منها أبوه فهما إجماليا كليا - كما بيناه آنفا- و بنى عليه أن حذره و أنذره ما يستهدف له قبله من كيد إخوته و بشره بحسن عاقبته"³ .

و يقع هذا المقام في أربع آيات و هي في قوله جل شأنه: " إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ(4) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(5) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ

1 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج12 ، ص204 .

2 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، م4 ، ص1949 .

3 محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، دط ، 1990 ، ج12 ، ص213

الأحاديثِ وَبِتِّمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(6)لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ(7)¹ .

ففي بداية قصة يوسف عليه السلام رأى في المنام أن أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر سجدت له . و ما حملنا على أن الاعتقاد أن ما أخبر به يوسف عليه السلام أباه رؤيا منامية أمران : الأول : أن الكواكب لا تسجد في الحقيقة ، فوجب حمل هذا الكلام على الرؤيا . و الثاني : قول يعقوب عليه السلام : " لا تقصص رؤياك على إخوتك" .

وقد استفتح يوسف عليه السلام خطابه لأبيه ب:"يا أبت" لما تحمله من معاني الحب و التقدير و الإجلال لأبيه مسترعا لاهتمامه لينبئه لقيمة ما سيقوله ثم ناجى يوسف يعقوب عليهما السلام - برؤياه- لأنه اعتقد في أبيه كمال العلم في تأويل المراني الحلمية .

و في أثناء قصه لها أعاد يوسف عليه السلام ذكر الجملة " رأيتهم " باعتبارها جملة مؤكدة لجملة رأيت أحد عشر كوكبا ، و جيء بها على الإستعمال في حكاية المراني الحلمية ففيها يعاد فعل الرؤيا تأكيدا لفظيا أو استئنافا بيانيا ، كأن سامع الرؤيا يستزيد الرائي أخبارا عما رأى"² .

بينما ترى طائفة من المفسرين - وعلى رأسهم الزمخشري- بأن إعادة الفعل رأيت أنه "ليس بتكرار إنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جوابا له ، كأن يعقوب عليه السلام قال له عند قوله:" إني رأيت أحد عشر كوكبا : كيف رأيتها ؟ سائلا عن حال رؤيتها"³ .

ثم وصف يوسف عليه السلام حالها بأنها ساجدة له:" رأيتهم لي ساجدين- و أجرى الكواكب مجري العقلاء " لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء و هو السجود أجرى عليها حكمهم كأنها عاقلة . و هذا كثير شائع في الكلام أن يلابس الشيء الشيء من بعض الوجوه فيعطى حكما من أحكامه إظهارا لأثر الملابس و المقاربة"⁴ .

و بعد أن بث يوسف عليه السلام رؤياه على مسامع أبيه جاءه الإرشاد منه مباشرة:" يا بني لا تقص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين"⁵ .

1 يوسف ، 4-7 .

2 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج 12 ، ص 207 .

3 جار الله الزمخشري ، الكشاف ، ج 2 ، ص 443 ، ص 445 .

4 جار الله الزمخشري ، المرجع نفسه ، ج 2 ، ص 445 .

5 يوسف ، 5 .

فأرشد الأب الحاني ابنه بأن لا يقصّ رؤياه على إخوته لأنه-يعقوب عليه السلام- عبر الإحدى عشر كوكبا بإخوته و السجود بخضوعهم ليوسف عليه السلام و تعظيمهم إياه ، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام إخوته فيحسدوه عليه ، هذا بالإضافة إلى غيرة إخوته منه لفرط فضله عليهم خلقا و خلقا و مقاما عند أبيه .

و لم يحرص يعقوب عليه السلام على تأكيد العزم على يوسف بأن لا يقص رؤياه على إخوته إلا بعدما علم أنهم يعبرون الرؤى إجمالا و تفصيلا فيكدوا له ، و المعنى "إن قصصتها عليهم كادوك . فإن " قلت : هلا قيل: فيكيدوك كما قيل : فكيدوني ، قلت : ضمّن معنى فعل يتعدى باللام ليفيد معنى فعل الكيد مع إفادة المعنى المضمّن فيكون أكد و أبلغ في التخويف"¹.

و قد نادى يعقوب عليه السلام يوسف عليه السلام بقوله: "يا بني" و لفظ التصغير هذا "كناية عن تحبيب و شفقة لأن شأن الصغير أن يحب و يشفق عليه و في ذلك كناية على إحاض النصح له"².

و بعد النصح و الإرشاد من يعقوب عليه السلام ، أتى بالبشرى يزفها لابنه في قوله :
"و كذلك يجتبيك ربك و يعلمك من تأويل الأحاديث و يتم نعمته عليك و على آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم و إسحاق إن ربك عليم حكيم"³ .

فبشر يعقوب ابنه يوسف عليها السلام بثلاثة بشائر: أولها : الإجتباء و ثانيها : تعلم تأويل الأحاديث و آخرها: إتمام النعمة .

فأجمل يعقوب عليه السلام هذه البشائر و نحن ن فصلها فنقول :

الإجتباء ؛ هو الإختيار و الإصطفاء أي " إختياره من بين إخوته أو من بين كثير من خلقه ، وقد علم يعقوب عليه السلام ذلك بتعبير الرؤيا و دلالتها على رفعة شأنه في المستقبل ، فتلك إذا ما ضمت إلى ما هو عليه من الفضائل آلت إلى اجتباء الله إياه"⁴ .

1 جار الله الزمخشري ، الكشاف ، ج 2 ، ص 444 .

2 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج 12 ، ص 213 .

3 يوسف ، 6 .

4 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج 12 ، ص 216 .

فأما تأويل الأحاديث : " فتصح أن تكون جمع حديث بمعنى الشيء الحادث ، فتأويل الأحاديث إرجاع الحوادث إلى عللها وأسبابها بإدراك حقائقها على التمام"¹ .

و قد يقصد بها " تعبير الرؤى و سماه تأويلا لأنه يؤول أمره إلى ما رآه في المنام يعني تأويل أحاديث الناس فيما يروونه في منامهم ، قالوا : أنه عليه السلام كان في علم التعبير غاية"² .

و أما إتمام النعمة : " فمعلوم أن النعمة التامة التي حصل امتياز إبراهيم و إسحاق على سائر البشر ليس إلا النبوة"³ ، و تحتمل أن تكون بمعنى أن الله عز جل قد وصل لهم نعمه الآخرة بأن جعلهم أنبياء في الدنيا و ملوكا و نقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنة"⁴ .

و الحاصل أن يعقوب عليه السلام قد استشرف ليوسف عليه السلام المستقبل الواعد فبشره بهذه البشارات لتكون سندا و عوناً له في وجه ما سيلاقيه من مصاعب و محن . و إذا علم يوسف عليه السلام من أبيه هذا استرخس كل التضحيات من أجل الوصول إلى المال المشرق الذي استشرفته له العناية الإلهية .

ولذلك ذكر الأب الإبن ببدء بجده إبراهيم عليه السلام ليشعره بأنه مجد هذه الذرية مؤثلاً عريقاً .

ثم ذيل* يعقوب عليه بشارته بقوله : "إن ربك عليم حكيم" ، ليعلمه بأن الذي " اجتباها لهذه الرؤيا يجتبيه بالإصطفاء و بتأويل الأحاديث و بإتمام النعمة لأنه سبحانه و تعالى عليم يعلم من يحق له الإجتيا ، و حكيم لا يتم نعمته إلا على من يستحقها"⁵ .

و يختم هذا المقام بقوله تعالى: " لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَائِلِينَ"⁶ . و وظيفة هذه الآيات التشويق والتنبيه لأن السامع يريد الوقوف على تفاصيل المعنى المجمل فيها و تفسيره و التلهف لمعرفة هذه الآيات العجيبة الملفتة .

1 محمد الطاهر بن عاشور ، المرجع السابق ، ج 12 ، ص 216 .

2 جار الله الزمخشري ، الكشاف ، ج 2 ، ص 445 .

3 فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، م 9 ، ج 17 ، ص 73 .

4 فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، م 9 ، ج 17 ، ص 68 .

* ذيل : من التذليل و هو : "إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه ، حتى يظهر لمن لم يفهم ، و يتأكد عند من فهم" . من كتاب الصناعتين ، لأبي هلال العسكري ، ص 387 .

5 جار الله الزمخشري ، الكشاف ، ج 2 ، ص 445 .

6 يوسف ، 7 .

و جاءت كلمة " آيات " على صيغة الجمع " لأن أمور يوسف كانت كثيرة و كل واحدة منها آية بنفسها"¹ .

و ربما يراد بالآيات ؛ العبر و العظات لأنها الهدف الأساس من سوق القصص القرآني فالمعنى : أن في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته عبر و مواظ لمن أرادها و استقصاها.

و بهذه الآية ينتهي المقام الإستهلاكي بشقيه : التمهيدي و البدئي . و لا حظنا مدى مطابقة الخطاب فيه لمقتضيات أحوال المخاطبين .

و لما انتهى بنا العرض من هذا المقام نشرع في استقصاء المقام الجزئي الثاني من قصة يوسف عليه السلام و هو مقام الصراع .

2. مقام الصراع :

يتولد الصراع داخل القصة القرآنية عندما يشعر شخص أو أشخاص من شخوص القصة بعدم الإرتياح إزاء أمر ما فيحاول دفعه عنه . و يقوى الصراع و يستعر حسب الأسباب و الدوافع التي تغذيه .

و الصراع في الحقيقة هو محرك الأحداث فيقوم بتغذيتها فتنموا إلى أن تصل إلى أقصى درجات التآزم و التعقيد .

أ. مقام الصراع العام لقصة يوسف عليه السلام :

و نقصد به ذلك الصراع العام الذي أطر لقصة يوسف عليه السلام و دفعها إلى نهايتها ، فهو مجموع الصراعات الجزئية التي شكلته في مجملها و رسمت ملامحه العامة .

ب. أنواع الصراع في قصة سيدنا يوسف :

يتمظهر الصراع داخل قصة يوسف عليه السلام في ثلاثة أنواع نبدأ بالأهم فالمهم.

أولاً: مقامات الصراع بين شخصيات القصة:

1 فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، م9 ، ج17 ، ص 73 .

و فيه تقف على عدة ثنائيات متصارعة منها :

1. الصراع بين يوسف عليه السلام و إخوته :

و تقع الحلقة الأولى من هذا الصراع في قوله تعالى: " إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا وَحَنُّ عُسْبَةٍ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(8) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ(9) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْفَوْهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ(10)"¹ .

فمن الآية الثامنة تبدأ الأحداث الفعلية لقصة يوسف عليه السلام بمحاورة بين إخوة يوسف - عليه السلام- في أمر يشغل تفكيرهم و هو حب أبيهم يعقوب عليه السلام الكبير ليوسف عليه السلام و أخيه ، و قد بدؤوا مقالتهم بلام الإبتداء ، " و فيها تأكيد و تحقيق لمضمون الجملة ، أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه"² .

و ادعأؤهم هذا - إفراط يعقوب في حبه ليوسف و أخيه - يحتمل الصدق والكذب . ثم إننا لو سلمنا بصدقه فليعقوب عليه السلام مبررات محتملة في زيادة حبه لهما ؛ وهي أن " أمهما ماتت وهم صغار . وثانيها : لأنه كان يرى فيه - يوسف - من آثار الرشد والنجابة ما لم يجد في سائر الأولاد . وثالثها : لعله وإن كان صغيرا إلا أنه كان يخدم أباه بأنواع من الخدم أشرف وأعلى بما كان يصدر عن سائر الأولاد "³ .

ولقد تعجب الإخوة من هذا الحب و الإدناء من أبيهم ليوسف ليه السلام و قالوا: "إنه فضله في المحبة علينا و هما اثنان صغيران لا كفاية فيهما و لا منفعة ، و نحن جماعة رجال كفاءة تقوم بمرافقه ، فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة و المنفعة عليهما"⁴ .

ثم عللوا تعجبهم هذا بضلال أبيهم ضلالا مبينا ، أي أنه ابتعد عن "علم حقيقة الأمر كما ينبغي"⁴ ، أي أمر تفضيلهما عليهم .

1 يوسف ، 8 - 10 .

2 فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، م9 ، ج17 ، ص 75 .

3 محمد الأمين الشنقيطي ، أضواء البيان ، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1421هـ-2000م ، م3 ، ص40 .

4 جار الله الزمخشري ، الكشاف ، ج2 ، ص 446 .

و قد شحنا خطابهم هذا بجملة من المؤكدات- بالرغم من اشتراكهم جميعا في الموقف السابق- لأنهم " لم يكونوا سواء في الحسد لهما و الغيرة من تفضيل أبيهم إياهما على بقيتهم ، فأراد بعضهم إقناع بعض بذلك ليتمالؤوا على الكيد ليوسف عليه السلام و أخيه " ¹ .

ثم يخرج سياق كلامهم من المحاورة إلى المؤامرة ، فنراهم يتشاورون حول طريقة يتخلصون بها من يوسف عليه السلام ليخلو لهم وجه أبيهم و يقبل عليهم بحبه . و وجاءت بداية المؤامرة في قوله تعالى: " اَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ " ² .

وهذه الآية جملة "مستأنفة استئنفا بيانيا ، لأن الكلام المنقذ يثير سؤالا في نفوس السامعين عن غرض القائلين مما قالوه ، و إنما جعلوا له الكلام السابق * كالمقدمة لتتأثر نفوس السامعين ، فإذا ألقى إليها المطلوب كانت سريعة للإمتثال " ³ .

لذلك افتتحوا مقالتهم بفعل الأمر و الذي يفيد طلب حصول المطلوب في المستقبل ، فطلب بعضهم قتل يوسف عليه السلام أو طرحه أرضا ، و هما اقتراحان لغاية واحدة وهي الإهلاك ؛ فالقتل هو الإعدام المباشر ، أما النفي في أرض خالية فهو الإعدام بالجوع أو بالعطش أو بافتراس وحوش البرية . و قد ساقوا لفظ : "أرضاً" بصيغة النكرة لتكون منكراً و مبهمة لأبيهم لكي لا يطلبه فيها .

و أردفوا اقتراحهم بعذر لتبرير ما دبروه من إعدام يوسف عليه السلام و هو خلو وجه أبيهم لهم من المزاحم في الحب فيقبل عليهم بوجهه كله و لا يلتفت بحبه إلى غيرهم .

ثم ذيلوا كلامهم بما سيخلصون إليه من صلاح حالهم . فإما أن يصلح حالهم عند أبيهم أو يصلح بالتوبة مما سيقترفونه ، و إما أن يصلح معاشهم و يطمئن بهم ، لأن يوسف عليه السلام كان يشغل تفكيرهم ، فكانوا لا يقومون بأعمالهم على وجهها .

1 محمد الأمين الشنقيطي ، أضواء البيان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1421هـ-2000م ، م3 ، ص 40
2 يوسف ، 9 .

3 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج12 ، ص 222 .
* الكلام السابق : هو زعم الإخوة تفضيل يعقوب عليه السلام ليوسف عليه السلام و أخيه في الحب عليهم .

و من بين هذه الأصوات التي تدعوا إلى إعدام يوسف عليه السلام طفا صوت أقل حدة و أكثر رحمة قال صاحبه- معطيا بديلا عن الإعدام - : "لا تصلوا بعداوته و بغضه إلى قتله"¹ . و لم يكن لهم "سبيل إلى قتله ، لأن الله تعالى كان يريد منه أمرا لا بد من إمضائه و إتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة و من التمكين له ببلاد مصر و الحكم بها فصرفهم الله بمقالته"² عن قتله .

فاقترح عليهم الأخ الثاني مواراة يوسف عليه السلام في غيابة* الجب . و عرف هذا المقترح الجب بالألف و اللام العهدية ، لأنهم عهدوا وروود هذا الجب لإرواء ذواتهم و بهائمهم . و قد قصده القائل لأنه يقع على طريق القوافل فإذا أرادوا السقيا عثروا عليه و أخذوه معهم فحصل لهم مرادهم بإبعاده و نجوا بذلك من كبيرة القتل .

لكنه أردف قوله بـ "إن كنتم فاعلين" ، فنحس من قوله "روح التشكيك و التثبيط كأنه يشككم في أنهم مصررون على إيقاع الأذى بيوسف ، و هو أسلوب من أساليب التثبيط عن الفعل ، مما يدل على عدم الإرتياح ، لكن هذا أقل ما يشفي حقدهم ، و لم يكونوا على استعداد للتراجع فيما اعتزموه"³ .

و الصراع في الحلقة - من صراع يوسف عليه السلام مع إخوته - صراع ضمنى أي : أنه لم يكن مباشرا ووجه لوجه بين الشخصيات المتصارعة بل كان كيدا و تأمرا سينتج عنه-حتما- صراع مباشر ظاهر في الحلقة التالية من صراع يوسف عليه السلام مع إخوته .

و هذه الحلقة - الثانية - تقع في قوله تعالى : " فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ"⁴ .

فبعد التحاور و التآمر من إخوة يوسف عبيه السلام ، حان وقت تنفيذ ما اعتزموا في "الغد من ليلتهم التي استنزلوا فيها أباهم عنه عن إمساكه عنده"⁵ ، فأرسله معهم " فأخرجوه - يوسف عليه السلام- و به عليهم كرامة ، فلما برزوا إلى البرية أظهروا له العداوة فجعل يضربه أحدهم فيستغيث بالآخر فيضربه ، فجعل لا يرى منهم رحيمًا ، فضربوه حتى كادوا يقتلونه... ، و انطلقوا به إلى الجب ليطرحوه فيه ، فجعلوا يدلونه في البئر فيتعلق بشفير البئر فربطوا يده

1 إسماعيل بن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ص 977 .

2 إسماعيل بن كثير ، المرجع السابق ، ص 977 .

* الغيابة : كل ما غيب شيئا وستره ، وغيابة الجب ؛ غوره ن وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله .

3 سيد قطب في ظلال القرآن ، م4 ، 1974 .

4 يوسف ، 15 .

5 محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج 12 ، ص 219 .

و نزعوا قميصه فقال: يا إخوتاه ردوا علي قميصي أتوارى به في الجب، فقالوا : أدع الأحد عشر كوكبا و الشمس و القمر يؤنسانك ... ، فدلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت ، فكان في البئر ماء فسقط فيه فلم يضره ثم أوى إلى صخرة في البئر فقام عليها فجعل يبكي فناداه إخوته فظن أنها رقة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فيقتلوه فقام يهوذا فمنعهم وقال: قد أعطيتموني موثقا ألا تقتلوه . فكان يهوذا يأتيه بالطعام "1 .

فهذه هي المجريات الصراع الذي كان بين يوسف عليه السلام وإخوته وقت غيابهم عن ناظري أبيهم إلى أن استقر في غيابة الجب . و نحن إذ أوردنا هذا النص -على طوله- قصدا منا إلى إظهار مدى شدة و عمق حقد و غيرة و حسد الإخوة و مدى إصرارهم كذلك على التخلص من يوسف عليه السلام على الرغم من استجدائه و استرحامه .

لكن السياق القرآني كان موجزا جدًا حيث اختزل كل هذه الأحداث و الوقائع بملايساتها و إرهاباتها في ثلاثة أفعال و هي : "ذهبوا" ، "أجمعوا" ، "و يجعلوا" .

و هذا التصوير السريع ربما يدل على مدى استعجال إخوة يوسف عليه السلام في التخلص من أخيهم و إنفاذ ما أجمعوا عليه كي لا يستجد أمر يحول بينهم و بين إمضاء كيدهم به .

و تمر السنون و يتقلب الدهر و يمكن ليوسف عليه السلام في الأرض ، فتنبدل قوى الصراع، فبينما كان يوسف عليه السلام في الحلقات الأولى من الصراع ضعيفا يكاد له و به سيصبح إخوته في الحلقات التالية هم الضعفاء و هو من يكيد لهم و أول حلقات الصراع بعد التحول نجدها في قوله تعالى : "وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ(58)وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ(59)فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون(60)قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ(61)وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(62)"2 .

1 إسماعيل بن عبد الرحمان السدي الكبير ، تفسير السدي الكبير ، دار الوفاء ، مصر ، ط1 ، 1414هـ-1993م ، ص 308 .
2 يوسف ، 58-62

فلما ورد الإخوة على يوسف عليه السلام ممتارين* عرفهم ونكروه " لطول العهد و مفارقتهم إياه في سن الحداثة ، ولاعتقادهم أنه قد هلك و لذهابه عن أوهامهم لقلّة فكرهم فيه و اهتمامهم بشأنه ، و لبعده حاله التي بلغها من الملك و السلطان"¹ .

وقع " الإخبار عنهم بالجملة الإسمية-هم له منكرون- للدلالة على أن عدم معرفتهم له أمر ثابت متمكن منهم ، و كان الإخبار عن معرفته إياهم بالجملة الفعلية "عرفهم" المفيدة للتجدد للدلالة على أن معرفته إياهم حصل بحدثان رؤيته إياهم دون توسم أو تأمل . و قرن مفعول منكرون ؛ و الذي هو ضمير يوسف -عليه السلام- بلام التقوية و لم يقل: "هم منكرونه" لزيادة تقوية جهلهم بمعرفته"² .

و بعد أن تعرف يوسف عليه السلام على إخوته عن قريب و استقصى عن أخبارهم دون أن يعرفهم بنفسه جهزهم بجهازهم و طلب منهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم .

و جاء يوسف عليه السلام بإسم "أخ" بصيغة النكرة " ليوهم أنه لا يعرفهم إلا بما وصفوه هم من حالهم و حال آلم . ثم ذيل طلبه بوصف حاله بأنه خير المنزلين ليرغبهم في نفسه آخرًا و يؤنسهم و يستميلهم"³ ، ثم يرهبهم و يخوفهم بعد ذلك بقوله : " فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي و لا تقربون"⁴ .

وقال يوسف عليه السلام هذا لإخوته لأنه علم - بنباهته عليه السلام - مدى ضيق حالهم و عسره و أن ما امتاروه لن يكفيهم و سيكون لزاما عليهم أن يرجعوا إليه استزادة في طلب القوت.

فهو مرة يرغبهم و يرهبهم أخرى تحفيزا منه لهم بأن يرجعوا مصطحبين شقيقه . و علمه هذا أثمر سريعا عندما رد عليه الإخوة قائلين : "سنراود عنه أباه و إنا لفاعلون" ، فأكدوا إحضار أخيهم بمؤكدين - إن و اللام - و لم يكتف يوسف عليه السلام بالترغيب الأول بل زاد عليه آخرًا

1 جار الله الزمخشري ، الكشاف ج 2 ، ص 483 .

2 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج 13 ، ص 12 .

3 محمد الطاهر بن عاشور ، المرجع السابق ، ج 13 ، ص 13 .

4 يوسف ، 60 .

* الميرة: " الطعام المجلوب " (التحرير و التنوير ، ج 13 ، ص 17) .

حين أمر خدمه فقال: " اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون"1 .

وعلى بعض المفسرين هذا الرد للبضاعة فقالوا: " أنهم إذا فتحوا متاعهم-الإخوة- وجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم علموا أن ذلك من كرم يوسف و سخائه فبيعت ذلك على الرجوع إليه سريعاً . و قيل أنه خاف أن لا يكون عند أبيه شيء من المال لأن الزمان كان زمان قحط وشدة . و قيل أنه رأى أن أخذ المال من أبيه و إخوته لؤم لشدة حاجتهم إليه . و قيل أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم فيه لوم و لا عيب . و قيل أراد أن يريهم بره و كرمه و إحسانه إليهم في رد بضاعتهم ليكون ذلك أدعى إلى العودة إليه"2 .

وبالفعل عاد إخوة يوسف عليه السلام ومعهم الأخ الذي من أبيهم ، وبذلك سيدخلون في حلقة جديدة من الصراع مع يوسف عليه السلام و هي في قوله جل ثناؤه:" وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(69) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ(70) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ(71) قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ(72) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ(73) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ(74) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(75) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ(76) قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ(77) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(78) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ(79)"3 .

فبمجرد أن دخل إخوة يوسف عليه السلام آوى إليه أخاه فقربه منه و أدناه لاشتياقه إليه و ليتمكن من الإسرار إليه بقوله له:"إني أنا أخوك" ، "فكلمه بكلمة مختصرة بليغة إذ أفاده أنه هو أخوه الذي ظنه أكله الذئب"4 .

1 يوسف ، 62 .
2 علاء الدين الخازن ، تفسير التأويل في معاني التنزيل ، دار الفكر بيروت ، لبنان ، دط ، 1399هـ-1979م ، ج3 ، ص296.
3 يوسف ، 69-79 .
4محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج13 ، ص 26 .

ثم واساه بأن أرشده إلى عدم الحزن و الإبتئاس على هلاك أخيه الشقيق و على فظاظة إخوته و غيرتهم منه .

و أفاد فعل " الكون " - كانوا- في الماضي: أن المراد ما عملوه فيما مضى ، و أفاد صوغ "يعملون" بصيغة المضارع ؛ أنها أعمال متكررة من الأذى . و في هذا تهينة لنفس أخيه لتلقي حادث الصواع* باطمئنان حتى لا يخشى أن يكون بمحل الريبة من يوسف عليه السلام"¹ .

و يشتد الصراع عندما يدبر يوسف عليه السلام مكيدة لأخوته ليأخذ أخاه عنده . هذه المكيدة تقتضى دس السقاية في متاع أخيه الشقيق ، ثم ينادي مناد من قبل يوسف عليه السلام : "يا أيتها العير** إنكم لسارقون" . و قد" أنت اسم الإشارة و هو: "أيتها " لتأويل العير بمعنى الجماعة لأن الركاب هم الأهم"² .

و نادى منادي يوسف عليه السلام العير كلهم لأنه لم يعلم ما صنعه يوسف عليه السلام من مكيدة .

و لما توقفت العير أقبل فتیان يوسف عليه السلام على إخوته فسألهم الإخوة : ماذا تفقدون؟ ، قالوا : نفقد صواع الملك .

و أسند الصواع إلى الملك و ذلك لتشريفه و تهويل سرقة .

فاغتاظ إخوة يوسف من هذه التهمة و أكبروها فراحوا يقسمون أنهم ما جاؤوا إلا للميرة ، و فندوا صلاح حالهم و نفي التهمة عنهم بذكر ما سلف من حسن سيرتهم برد البضاعة التي جعلها يوسف عليه السلام في أرحالهم أول مرة ، فالمعنى : لو كنا سارقين مارددنا البضاعة التي وجدناها"³ .

و لما سمع فتیان يوسف عليه السلام مقالة إخوته سألوهم عن جزاء السرقة في شريعتهم ، فأجابوا : جزاؤها الإستعباد و الإسترقاق . فأقاموا عليهم الحجة بأن حكمهم على أنفسهم .

* الصواع : "الغة في الصاع؛ و هو وعاء للكيل يقدر بوزن رطل و ربع أو ثلث" (التحرير و التنوير ، ج13 ، ص 27) .

1 مجمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج13 ، ص 27 .

** العير : "إسم للحمولة من الإبل و الحمير ، و ما عليها من أحمال و ما معها من ركاب فهو إسم مجموعة هذه الثلاثة" (التحرير و التنوير ، ج13 ، ص28)

2 مجمد الطاهر بن عاشور ، المرجع السابق ، ج13 ، ص 28 .

3 أبو محمد مكي القزويني ، تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية ، مجموعة بحوث الكتاب و السنة ، الشارقة الإمارات العربية المتحدة ،

ط1 ، 2008 ، ج5 ، ص3603 .

و لإتمام مكيدته أمر يوسف عليه السلام فتيانه بأن يفتشوا أوعيتهم بادئين بأوعية إخوته غير الأشقاء ثم ينتهوا بأخيه الشقيق ، "و هذا تعريض بأنه - يوسف عليه السلام- لا يعرف في أي وعاء هو - الصواع - نفيًا لتهمة عنه"¹ .

و يؤكد الله تعالى بأن المكيدة من عنده سبحانه و تعالى في قوله:"و كذلك كدنا ليوسف" و"أسند الكيد إلى الله تعالى لأنه ملهمه فهو مسببه ، و جعل الكيد لأجل يوسف عليه السلام لأنه لفائدته"² .

و ما هذه المكيدة إلا "فعلة كادها الله له- يوسف عليه السلام- فاعتل بها"³ ليأخذ أخاه عنده.

ولما استخرج الصواع من رحل أخيهم بهت الإخوة و اندهشوا و نكسوا رؤوسهم خجلا لأنهم زعموا من قبل براءتهم مما اتهموا به .

و لما ووجهوا بالحقيقة حاولوا نفي التهمة عنهم و إصاقها بأخيهم وحده ، و عللوا - السرقة- بأنها طبع عليه هو وأخوه الذي هلك - يعنون يوسف عليه السلام- و هذا بهتان منهم على يوسف عليه السلام لأنهم أرادوا به نفي المعرفة عنهم ، لأن يوسف عليه السلام لم تسبق له سرقة من قبل .

ثم بادروا يوسف عليه السلام بالإستعطاف متوسلين إليه بأبيهم ، فوصفوه بثلاثة صفات " تقتضى الترقيق عليه و هي : حنان الأبوة و صفة الشيخوخة و استحقاق جبر خاطره لأنه كبير قومه أو لأنه انتهى في الكبر أقصاه . فالأوصاف مسوقة للحث على(إطلاق) سراح الإبن لا لأصل الفائدة لأنهم كانوا قد أخبروا يوسف عليه السلام بحال أبيهم"⁴ .

و عرض الإخوة على يوسف عليه السلام اقتراحا ، و هو أن يأخذ أحدهم مكانه ، مذكرين إياه بإحسانه إليهم ، سائلين إياه أن يتمه عليهم بإنجازهم مطلوبهم .

1 محمود الألوسي ، روح المعاني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، دط ، دت ، ج23 ، ص101 .

2 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج13 ، ص31 .

3 حكمت بن باشير ياسين ، الصحيح المسبور من التفسير المأثور ، دار المآثر ، السعودية ، ط1 ، 1420هـ-1999م ، ج3 ، ص95.

4 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج13 ، ص31 .

لكن يوسف عليه السلام رفض عرض إخوته قائلاً: "معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون"¹. و لم يقل: "معاذ الله أن نأخذ بريئاً بجريرة سارق لأنه كان يعلم أن أخاه ليس بسارق"².

و قوله: "معاذ الله" هو "كلام موجه: ظاهره؛ أنه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصواع في رحله و استعباده فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلماً في مذهبكم، فلما تطلبون ما عرفتم أنه ظلم. و باطنه؛ إن الله أمرني و أوحى إلي بأخذ بنيامين لمصلحة أو لمصالح جمّة، فلو أخذت غير من أمرني بأخذه كنت ظالماً و عاملاً على غير الوحي"³.

و إلى هنا تنتهي هذه الحلقة من الصراع بين يوسف عليه السلام و إخوته لنبدأ في عرض الحلقة الأخيرة منه و التي تقع في قوله جل شأنه: " قَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ قَاوِفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ(88) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ(89) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقُ وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(90)"⁴.

وتبدأ هذه الحلقة بعودة إخوة يوسف عليه للميرة مرة ثالثة و لطلب إختهم* الذين ضيعوا من قبل فدخلوا على يوسف عليه السلام مبادرينه بالشكوى و بوصف حالهم بأنهم قد مسهم الضر؛ و هو الفقر و الحاجة مع كثرة العيال و قلة الطعام، و هم لا يملكون إلا بضاعة مزجاة**، و التمسوا منه أن يوفيهم الكيل -الذي هو حقهم- و يزيدهم عليه بأن يتصدق عليهم لأن مجرد التوفية لا تكفيهم مرغبين إياه في الصدقة و ذلك بذكر ثوابها عند الله.

و خاطب الإخوة يوسف عليه السلام بخطاب التعظيم فقالوا: "يا أيها العزيز" من جهة واستصغروا أنفسهم من جهة أخرى طمعا منهم بأن يجيبهم إلى طلباتهم. فجربوه بادئين بطلبهم إيفاء الكيل و التصدق عليهم فإن أجابهم إلى ذلك أرفوه بطلبهم إطلاق سراح أخيه لأن الذي يحسن مرة يحسن آخر.

¹ يوسف، 79.

² سيد قطب، في ظلال القرآن، 4م، ص2022.

³ جار الله الزمخشري، الكشاف، ج1، ص493.

⁴ يوسف، 88-90.

*إختهم الذين ضيعوا من قبل هم: يوسف عليه السلام وأخوه الشقيق بنيامين و الإبن الأكبر ليعقوب عليه السلام.

** مزجاة: "إنما وصف تلك البضاعة بمزجاة إما لنقصانه أو لرداءتها أو لهما جميعاً"(التفسير الكبير، م9، ج18، ص165).

و قد ذهب بعض المفسرين إلى تأويل طلب التصديق بأنه تعريض من الإخوة ليوسف عليه السلام بإطلاق سراح أخيهم .

و بعدما وقف يوسف عليه السلام على مدى الضر الذي مس أباه و إخوته و آله أجمعين رق لحالهم و أشفق عليهم فراح يعرفهم بنفسه قائلا: " قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ"¹ .

فبدأ خطابه إياهم بـ: "هل علمتم؟" ، " فأتاهم من جهة الدين - و كان حليما موقفا - فكلّمهم مستفهّما عن وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب ، فقال : هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف و أخيه فتبتم إلى الله منه لأن علم القبح يدعو إلى الإستقباح و الإستقباح يجر إلى التوبة ، فكان كلامه شفقة عليهم و نصحا لهم في الدين لا معاتبة و تثريبا إيثارا لحق الله على حق نفسه"² . فخطبهم بهذا الخطاب المتواضع ليخفف عنهم الصدمة و يزيل عنهم الخجالة. و علل فعلتهم به بكونهم كانوا جاهلين .

و قد علم فعل الإخوة بيوسف عليه السلام و لكن ما وجه ما فعلوه بأخيه ؟ .

و الحقيقة أنهم لما قاموا بتغريب يوسف عليه السلام بإلقائه في الجب قاموا " بتعريضهم إياه- شقيق يوسف عليه السلام- للغم و التكل* بإفراده عن أخيه لأبيه و أمه و جفاؤهم به حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحدا منهم إلا كلام الذليل للعزيز و إيذاؤهم له بأنواع من الأذى"³. و إننا إذ نطوي هذه الحلقة من الصراع نطوي معها مقامات الصراع بين يوسف عليه السلام و إخوته ، لنلتقي به في مقامات الصراع الأخرى و هي مقامات الصراع بين يوسف عليه السلام و امرأة العزيز و النسوة .

2. مقامات الصراع بين يوسف عليه السلام و امرأة العزيز و النسوة .

أ. مقامات الصراع بين يوسف عليه السلام و امرأة العزيز:

و لعل هذا الوجه من الصراع هو الأعمق و الأعنف في حياة يوسف عليه السلام و هذا ما سنقف عليه من عرض هذا المقام والذي يقع في قوله تعالى: " وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن

1 يوسف ، 89 .

2 جار الله الزمخشري ، الكشاف ، ج2 ، ص501.

3 جار الله الزمخشري ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 501.

* التكل: "فقدان المرأة ولدها ، و المراد هنا: الحزن" (التفسير الكشاف ، ج2 ، ص 501 ، من الهامش)

نَفْسِهِ وَغَافَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ(24) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(25) قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ(26) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ(27)"¹ .

و المرادة تحمل معنى التكرار أي : أن هذه الواقعة لم تكن الأولى بل سبقتها مرادوات كانت أقل حدة ، و ربما كانت مجرد تلميحات و إشارات لأن يوسف عليه السلام كان يعيش في بيت التي تراوده عن نفسه فهو بقربها و تطلبه حيث و متى تشاء ، لكن هذه المرة أماطت اللثام عن كل التعريضات و أبدتها صريحة حتى أنها قالت له "هيت* لك" بعد أن أحكمت إيراد الأبواب ، و أردفت "هيت" باللام و " ذلك لزيادة بيان المقصود بالخطاب"² .

فرد عليها يوسف عليه السلام قائلا: " مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ"³، أي أعتصم بالله من الذي تدعوني إليه و أستجير به منك . و هو امتناع أول عن المطاوعة ، ثم أكد ممانعته بقوله:"إنه ربي أحسن مثواي" و المعنى : أنه" لا يصلح لي أن أخونه و قد أكرم مثواي و ائتمني"⁴ .

ثم ذيل رده بقوله:"إنه لا يفلح الظالمون" ، و هو " تعليل ثان للإمتناع . و الضمير المجعول اسما " لإن" ضمير الشأن يفيد أهمية الجملة المجعولة خبرا عنه لأنها موعظة جامعة ، و أشار إلى أن إجابتها لمرادته ظلم كليهما نفسه بارتكاب معصية مما اتفقت عليه الأديان على أنها كبيرة و ظلم سيده الذي أمنه على بيته و أمنها على نفسها إذ اتخذها زوجا و أحصنها"⁵ .

و قول يوسف عليه السلام السابق-"معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون"- اشتمل على ثلاثة جوابات متتابعة - و التي بينها أنفا- فما وجه تعلق هذه الأجوبة بعضها ببعض.

1 يوسف ، 23-27 .

* هيت : إسم فعل أمر بمعنى يادر .

2 محمد الطاهر بن عاشور ،التحرير و التنوير ، ج12 ، ص251 .

3 يوسف ، 23 .

4 عبد الحق بن غالب الأندلسي ، المحرر الوجيز ، في تفسير الكتاب العزيز ، ت ، عبد السلام عبد الشافي ، دار الكتاب العلمية ، لبنان ، ط1 ، 2001 ، ج3 ، ص 233.

5 محمد الطاهر بن عاشور ،التحرير و التنوير ، ج12 ، ص252 .

و الواقع أن " هذا الترتيب في غاية الحسن ، و ذلك لأن الإنقياد لأمر الله و تكليفه أهم الأشياء لكثرة إنعامه و أطافه في حق العبد فقوله : "معاذ الله" إشارة إلى أن حق الله تعالى يمنعه من هذا العمل و أيضا حقوق الخلق واجبة الرعاية فلما كان هذا الرجل - العزيز- قد أنعم في حقي يقبح مقابلة إنعامه و إحسانه بالإساءة . و أيضا صون النفس عن الضرر واجب و هذه اللذة لذة قليلة يتبعها خزي في الدنيا و عذاب شديد في الآخرة ، واللذة القليلة إذا لزمها ضرر شديد فالعقل يقتضي تركها و الإحتراز عنها ، فقوله: "إنه لا يفلح الظالمون" إشارة إليه . فنبت أن هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجه الترتيب"¹ .

لكن امرأة العزيز ومع كل هذه التعديلات و الإمتناع و الصدود لم يفل عزمها بل همت به ، و هذا في قوله تعالى: " وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ"² .

و جملة "ولقد همت به" "مستأنفة استئنفا ابتدائيا * و المقصود أنها - امرأة العزيز - كانت جادة فيما راودته لا مختبرة"³ .

و ذكر الله تعالى أن يوسف عليه السلام كذلك "هم بها" و المراد بهمه: " أن نفسه مالت للمخالطة و نازعت إليها عن شهوة الشباب و قرمه ميلا يشبه الهم به و القصد إليه . و كما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول و العزائم و هو يكسر ما به و يرده بالنظر في البرهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم و لو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى "هما" لشدته لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالإمتناع لأن استعظام الصبر عند الإبتلاء على حسب عظم الإبتلاء و شدته . و لو كان همه كهما عن عزيمة لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين"⁴ .

و المقصود من ذكر همها به ؛ "التمهيد إلى ذكر انتفاء همه بها لبيان الفرق بين حالهما في الدين فإنه معصوم"⁵ .

1 فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، م 9 ، ج 17 ، ص 94 .

2 يوسف ، 24 .

* الجملة المستأنفة استئنفا ابتدائيا : هي الجملة التي يستهل بها معنى جديد ، لكن في نفس سياق الجمل السابقة .

3 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج 12 ، ص 252 .

4 جار الله الزمخشري ، الكشاف ، ج 2 ، ص 456 .

5 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج 12 ، ص 252 .

و قد أرى الله تعالى يوسف عليه السلام برهانه الذي صرفه به عن مخالطة المرأة المرادة ، و علل هذا الصرف بجملة "إنه من عبادنا المخلصين" ، فلما كان يوسف عليه السلام مخلصاً معصوماً "صرف الله عنه السوء و الفحشاء الصرف الخارق للعادة لئلا ينتقص اصطفاء الله إياه في هذه الشدة"¹ .

و بعد هذا الصرف حاول يوسف عليه السلام الهروب بعفته مقاوماً لامرأة العزيزف: "أَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"² .

فلما سبقها إلى الباب سابقته " فهو كان هاربا و هي تمنعه و تجذبه إليها و في هذه المسابقة قادت قميصه من ورائه لأنها تجري ورائه لتشدّه إليها مانعة له من الخروج"³ .

و في غمرة هذا التسابق و التدافع ألقيا العزيز عند الباب ، فكانت المفاجأة "لما اطلع منها على تلك الهيئة المريبة و هي مغناظة على يوسف إذ لم يواتها جاءت بحيلة جمعت فيها غرضها"⁴ .

و جملة " قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا " " مستأنفة بيانيا لأن السامع يسأل مستبيناً عما حدث عند إلقاء سيدها و هما في تلك الحالة . و تكلمت في الجزاء أي : أن الذنب ثابت مقرر"⁵ .

و هي بادرتة بالإتهام -لعلها- كانت " تخشى أن تكون محبة العزيز ليوسف عليه السلام مانعة له من عقابه فأفرغت كلامها في قالب كلي لأنها لم تتهمه بالمرادة عن نفسها بل اتهمته بأنه أراد بها السوء على إطلاقه ، وكانت تريد بذلك أن يشعر زوجها بأنها لا تهوى غير سيدها و أن تخيف يوسف عليه السلام من كيدها لئلا يمتنع منها مرة أخرى"⁶ .

1محمد الطاهر بن عاشور ، المرجع السابق ، ج ، 12 ، ص25

2 يوسف ، 25 .

3 محمد أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، دار الفكر العربي ، بيروت ، لبنان ، دط ، دت ، ج1 ، ص 3786.

4 عبد الحق بن غالب الأندلسي ، المحرر الوجيز ، ج3 ، ص235

5 جار الله الزمخشري ، الكشاف ، ج1 ، ص458-459 .

6 عبد الحق بن غالب الأندلسي ، المحرر الوجيز ، ج3 ، ص235.

فلما رأى يوسف عليه السلام أن المرأة المرادة قد بهتته قام يدافع عن نفسه فقال: " هي راودتني عن نفسي" ، "و أنه عليه السلام" ما هتك سترها في أول الأمر، إلا أنه لما خاف على نفسه و على العرض أظهر الأمر"¹ .

فهي اتهمته كاذبة و هو اتهمها صادقا فتطلب الأمر شهادة و دليلا ، فكان الشاهد و الدليل حاضرين في قوله شأنه: " قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (26) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ(27)"² .

فالشهادة في قول الشاهد الذي هو من أهل امرأة العزيز. و وصف قوله بأنه شهادة لأنه "يؤول إلى إظهار الحق في إثبات اعتداء يوسف عليه السلام على سيده أو دحضه"³ .

أما الدليل فهو تمزيق القميص ، و إنما ساقته امرأة العزيز محاولة أن تجعل منه حجة على أنها أمسكته لتعاقبه و لو لا ذلك لما خطر ببال الشاهد أن تمزيقا وقع . و" الظاهر أن الشاهد كان يظن أن يقيم الدليل على صدقها فوق عكس ذلك كرامة ليوسف عليه السلام"⁴ .

و أما الزيادات في قوله تعالى: "وهو من الكاذبين" بعد "فصدقت" و زيادة "وهو من الصادقين بعد " فكذبت" فهي زيادات لتأكيد تقرير الحكم و عدله .

و بعد ظهور براءة يوسف عليه السلام و تشنيع العزيز لزوجته على فعلها الشائن لم تنزجر بل استأنفت مراودتها ليوسف عليه السلام و هذا ما سنجده في الحلقة الثانية من صراعه مع امرأة العزيز و ذلك في قوله تعالى: " قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْنُبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ"⁵ .

فاعترفت امرأة العزيز للنسوة بمراودتها ليوسف عليه السلام على نفسه واعترفت كذلك بأنه قد استعصم أي ؛ بالغ في الإمتناع في طلب العصمة مما أرادته منه فهو يجتهد في الإستزادة منها.

1 فخر الدين الرازي ،التفسير الكبير ،9م ، ج 8 ، ص101 .

2 يوسف ، 26-27 .

3 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ،ج12 ، ص 257 .

4 محمد الطاهر بن عاشور ، المرجع السابق ،ج12 ، ص 257 .

5 يوسف ، 33 .

و على قدر استعصامه-عليه السلام – كان إصرارها للإيقاع به في حبائلها على قدره ،
مرهبة إياه بالسجن و بالصغار و الذل . فعبرت عليه بعبارة" من الصاغرين " "لأنه أقوى في
معنى الوصف بالصغار من أي يقال و ليكون صاغرا"¹ .

ولقد قالت ما قالت بحضرة يوسف عليه السلام و بمسمع منه استزادة منها في إرهابه.

و قبل أن تنتهي هذه الحلقة من هذا الصراع دخل يوسف عليه السلام في صراع جديد و من
نفس النوع ، لكن هذه المرة مع النسوة اللاتي دعتهن امرأة العزيز لتعرض عليهن يوسف عليه
السلام و ذلك لحاجة في نفسها سنذكرها في إبانها .

ب. مقام الصراع بين يوسف عليه السلام و النسوة :

و نجد هذا المقام في قوله تعالى: " قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ
عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْنُبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ"² .

و كما يظهر من الآية الكريمة فإن النسوة لما ذهبن بحسن يوسف عليه السلام ما لبثن أن
راودن يوسف عليه السلام عن نفسه هناك دعا ربه قائلا : "يا رب الحبس في السجن أحب إلي
مما يدعونني إليه من معصيتك و يراودنني عليه من الفاحشة"³ ، فهذا محتمل من قولهن فهن
مشاركات في الدعوة سواء بالقول أن بالحركات أو اللفات و يحتمل أنهن "تنصحن له و زينن له
مطاوعتها و قلن له : إياك و إلقاء نفسك في السجن و الصغار"⁴ ، و الحاصل أنهن قمن بمراودة
يوسف عليه السلام عن نفسه إما لخاصة أنفسهن و إما لنفس خليلتهن - امرأة العزيز- .
و بعد الإنتهاء من عرض مقام الصراع بين يوسف عليه السلام و بين النسوة نعد إلى مقام آخر
الصراع و هو مقام الصراع بين يوسف عليه السلام و السيارة .

و نحن إذ قدّمنا صراع يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز و النسوة على مقام الصراع مع
السيارة و ذلك لأهميته و لدوره الكبير في إنماء القصة .

1 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج12 ، ص264 .

2 يوسف ، 33

3 محمد بن جرير الطبري ، تفسير الطبري ، ت ، عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر ، مصر ، ط1 ، 2001م ، ج13 ،
ص144 .

4 جار الله الزمخشري ، الكشاف ، ج2 ، ص467 .

3. مقام الصراع بين يوسف عليه السلام و السيارة :

و بعد أن ألقى الإخوة يوسف عليه السلام في غيابة الجب مرت بالبئر قافلة فالتقطته ، و هذا مثبت في قوله جل شأنه: "وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ(19)وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ(20)"¹ .

فاستبشر الذي أخرج يوسف من الجب و راح يبشر رفاقه . " وجملة:" قال يا بشرى" مستأنفة استئنافا بيانيا لأن ذكر إدلاء الدلو سيهيء السامع للسؤال عما جرى حينئذ فيقع جوابه قال : يا بشرى"² .

وحقيقة ابتهاج الوارد أنه ما دام قد التقط الغلام فإنه سيكون عبدا له و سينتفع بثمه. ثم ذيلت الآية بقوله تعالى : "و الله عليم بما يعملون" أي" لم تخف عليه أسرارهم . و هو وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم"³ .

و قد أسرّ الوارد و رفاقه أمر التقاط يوسف عليه السلام عن "التجار الذين معهم في الرفقة ، و قالوا هو بضاعة استبضعناها بعض أهل الشام أو أهل الماء إلى مصر، و إنما قالوا هذا مخافة الشركة"⁴ أو خشية أن يكون عبدا أبقا و يبحث عنه سيده و هم يريدون بيعه"⁵ .

و ما كان ينبغي لأصحاب السيارة أن يفعلوا هذا بيوسف عليه السلام فكان الأجدر بهم أن "يعرفوا به من كان قريبا من الجب و يعلنوا كما هو الشأن في تعريف اللقطة ، لذلك كان قوله:"وأسرّوه بضاعة" " مشعرا بأن يوسف عليه السلام أخبرهم بقصته فأعرضوا عن ذلك طمعا في أن يبيعوه و ذلك من فقدان الدين بينهم أو لعدم العمل بالدين"⁶ .

1 يوسف ، 19-24

2 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج12 ، ص241 .

3 جار الله الزمخشري ، الكشاف ، ص 452 .

4 مجاهد جبر أبو الحجاج ، تفسير مجاهد ، المنشورات العلمية ، بيروت ، لبنان ، دت ، دط ، ج1 ، ص312 .

5 محمد الشعراوي ، تفسير الشعراوي ، ص 461 ، 462 .

6 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج12 ، ص243 .

و ذلك ما كان لهم إذ باعوه في مصر بثمن بخس حرام "لأنهم أوقعوا البيع على نفس لا يجوز بيعها فلذلك لا يحل ثمنه"¹ .

و فوق أنه كان ثمننا حراما كان قليلا – دراهم معدودات- و ذلك لأنهم التقطوه و ملتقط الشيء يتهاون في بيعه فيتخلص منه لأول مساوم و بأوكس الأثمان .

و وقع الإخبار عن زهادة الوارد و رفاقه في يوسف عليه السلام بعبارة : "من الزاهدين" لأنها " أشد مبالغة مما لو أخبروا ب : "كانوا فيه زاهدين" لأن جعلهم من فريق الزاهدين ينبئ بأنهم جروا في زهدهم في أمثاله على سنن أمثالهم البسطاء الذين لا يقدرّون قدر نفائس الأمور"² .

و هكذا ينتقل يوسف عليه السلام من مقام للصراع إلى آخر فلما جاوز صراع الإخوة و السيارة و امرأة العزيز و النسوة اصطدم عليه السلام بصراع من شكل آخر و هو صراعه مع النظام الحاكم في مصر آنذاك .

4. مقام الصراع بين يوسف عليه السلام و النظام الحاكم :

و كما رأينا ، فإن البلاء يتلون بيوسف عليه السلام و تستبد به المحن تترى حتى يصل إلى آخر صراع له في قصته هذه و هو صراعه مع النظام الحاكم في مصر ، و أول حلقتيه في قوله جل شأنه: " ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ"³ .

و من بعد أن ظهرت براءة يوسف عليه السلام مثبتة بآيات قد القميص بدا للنظام الحاكم في مصر أن يسجن يوسف عليه السلام و ذلك لما " شاعت القالة عن امرأة العزيز في شأنه ، فكان ذلك – سجن يوسف- عقب انصراف النسوة لأنها خشيت - امرأة العزيز - إن هن انصرفن أن تشيع القالة في شأنها و شأن براءة يوسف عليه السلام فرامت أن تغطي ذلك بسجن يوسف عليه السلام حتى يظهر في صورة المجرمين بإرادة السوء بامرأة العزيز و هي ترمي إلى تطويعه لها و أن توهم أنهن شواهد على يوسف عليه السلام"⁴ .

1 أبو عبد الله محمد القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ت ، عبد الله التركي ، مؤسسة الرسالة ، ط1 ، 1427هـ-2006م ، ج11 ، ص296.

2 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج12 ، ص244.

* البداء في الرأي : التلون فيه لظهور ما لم يكن ظاهر منه ، أو هو التلون في الرأي لمصلحة ما .
3 يوسف ، 35 .

4 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج12 ، ص 267 .

و قد شهّر بيوسف عليه السلام على الملاّ: " فؤمر به فحمل على حمار و ضرب أمامه بالطبل و نودي عليه في أسواق مصر أن يوسف العبراني أراد سيدتهن فهذا جزاؤه أن يسجن"¹.

و لم تحدد مدة لبث يوسف عليه السلام بل جاءت مبهمه-حتى حين- و ذلك لأن ذكر مدة اللبث لم تكن له أهمية في سير أحداث القصة و لا عبرة من سوقها .

و لعلمهم انتظروا الإفراج عن يوسف عليه السلام حتى: " تنسى الإشاعة – في زعمهم- و يظهر للناس أنها لو كانت تحبه ما سجنته – امرأة العزيز-"² .

فهم أرجوا تسريح يوسف عليه السلام حتى يفي السجن بغرض و ترد لامرأة العزيز سمعتها المهذورة ، لأنهم أوهموا الناس أن يوسف عليه السلام هو الجاني .

و إلى أن مر ذلك الحين ، لبث يوسف عليه السلام في السجن مع المجرمين ومع المظلومين مثله ، يعاني عليه السلام من ظلمة السجن و من ظلم الحكم .

و الحلقة الثانية من صراع يوسف عليه السلام مع النظام الحاكم نجدها في قوله تعالى :
وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قُطِعَ
أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ"³ .

و سياق هذا المقام هو أن الملك رأى ذات ليلة حلما أفزعته و هاله فطلب تأويله فعجز دون تعبيره كبار علمائه و عرافيه . عندئذ تذكر ساقى الملك أنه كان له صاحبا في السجن و كان صديقا وكان ضليعا في تفسير المراني الحلمية و الوقوف على ما تؤول إليه ، فأطلع الساقى الملك بأمر يوسف عليه السلام ، فما كان من الملك إلا أن أرسل الساقى ليستفتي يوسف عليه السلام في رؤيا الملك و يعبرها له ، فأفتاه يوسف عليه السلام بفتوى جلييلة أعجب الملك بها و استحسناها ، هناك أرسل الملك الرسول إلى يوسف ليأتيه بيوسف عليه السلام فرفض الخروج من السجن ورد الرسول محملا إياه سؤالا إلى الملك مفاده ؛ أن استقص عن أمر النسوة اللاتي قطعن أيدهن " ما خبرهن في مكرهن الذي خالطني فاشتد به بلائي فإنهن يعلمن أن امرأة

1 ابن أبو زمنين ، تفسير القرآن الكريم ، ت ، عبد الله بن عكاشة ، محمد الكنز ، دار الفاروق الحديثة ، القاهرة ، مصر ، 1423هـ-2002 ، ط1 ، م3 ، ص 325 .

2 برهان الدين إبراهيم البقاعي ، نظم الدرر في تناسب الآيات و السور ، ت ، عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1995م ، ج4 ، ص37 .
3 يوسف ، 50 .

العزیز ما دعتھن إلا بعد شھادتھن بأنها راودتني ثم اعترفت لھن بأنها راودتني و أني عصيتها أشد عصيان"¹ .

و اقتصر طلب يوسف عليه السلام الإستفھام عن أمر النسوة دون امرأة العزیز، تسھیلا و تمھيدا لكسف أمرھا " لأن ذكرھا مباشرة قد یصرف الملك عن الإستقصاء عنها لمكانة زوجها - العزیز- من الملك ، فربما یصرف الملك عن الكشف لھا مراعاة لقدر العزیز عنده لأن حديث المتكبر شاع بین الناس ، و أصبحت قضية يوسف مشھورة بذلك الیوم... ، فلا جرم كان طلب الكشف عن أولئك ، النسوة منتهی الحكمة في البحث و غاية الإیجاز في الخطاب"² .

و ذیل يوسف عليه السلام كلامه بجملة : " إن ربي بكیدهن علیم" یقصد ؛ دعتھن إیاءه إلى طاعة سیدته- امرأة العزیز- و هو تعریض منه عليه السلام بأن الإستفھام المطلوب سیظهر براءته و یظهر كید الكائدات له . و هذه ثقة منه بأن الله سینصره و یظهره و یظهر الحق . و یضاف الكید إلى النسوة و لو " لأدنی ملابسة لأن الكید واقع من بعضھن و هي امرأة العزیز في عرضھا من جمع النسوة فأضیف إلى ضمیر جماعتھن قصد الإبهام المعین علی التبیان"³ .

و بهذا المقام ینتهي بنا عرض مقام الصراع بین يوسف عليه السلام و بین أشخاص قصته .

و لكننا مازلنا نعرض مقامات الصراع بین شخصیات هذه القصة و لكن لا وجود لیوسف عليه السلام معها أي أنه لیس مصارعا مباشرا فیھا . إلا أن صراع الشخصیات فیھا یكون حول و من أجل و إزاء يوسف عليه السلام ، و ذلك ما سنلمسه من عرضنا لمقامات الصراع التالیة .

5. مقامات الصراع بین یعقوب عليه السلام و أبناؤه :

و أول حلقة من هذا الصراع جاءت في قوله جل ثناؤه: "قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ(11) أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(12) قَالَ إِنِّي لِيَحْرُتُنِّي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الدِّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ(13) قَالُوا لَئِن أَكَلَهُ الدِّبُّ وَوَحْنُ عُصْبَةٍ إِنَّا إِذَا لَخَّاسِرُونَ(14)"⁴ .

1 برهان الدين البقاعي ، نظم الدرر ، ج4 ، ص 53 .
2 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج12 ، ص 289 .
3 محمد الطاهر بن عاشور ، المرجع السابق ، ج12 ، ص 289 .
4 يوسف ، 11-14 .

فبعدما تشاور الإخوة و تأمروا على إبعاد يوسف عليه السلام عن أبيه قرروا إمضاء ما أجمعوا عليه فذهبوا يراودون عنه أباه قائلين : " يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11) أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(12)"¹ . فسياق الآية يدل على وجود "محاولات سابقة منهم في ذلك - المرادة - و لم يوافقهم"² أبوه لأنه أحس منهم ما أوجب عدم الاطمئنان إليهم في حفظ يوسف عليه السلام .

و لكنهم لما" تقرر في أذهانهم التفريق بين يوسف و أبيه أعملوا الحيلة على يعقوب ، و تطفوا في إخراجهم معهم ، و ذكروا نصحهم له في إرساله معهم من انشراح صدره بالإرتعاء واللعب إذ هو مما يشرح الصبيان ، و ذكروا له حفظهم مما يسوؤه"³ .

و لما وجد يعقوب عليه السلام الإصرار من أبنائه في أخذ يوسف عليه السلام معهم إلى البرية، راح يقدم المعاذير ليصرفهم عن مرادهم ، فتعلل بأمرين قائلاً: " قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ"⁴ .

فاعتذرا أولاً بحزنه لفراقه يوسف عليه السلام و لو لمدة قصيرة و ذلك لفرط حبه له إذ لا يتركه يغيب عن ناظره . ثم ثنى متعللاً بخوفه من أكل الذئب له في غفلة منهم .

لكن أذاره لم تثنيهم عن عزمهم فراحوا يفندونها قائلين: " قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ"⁵ .

فتغاضى إخوة يوسف عليه السلام عن أحد العذرين وهو" حزنه - يعقوب عليه السلام- على ذهابهم به (و ذلك) لقصر مدة الحزن و إيهامه أنهم يرجعون به عن قريب و عدلوا إلى قضية الذئب و هو السبب الأقوى في منعه"⁶ ، لأن الذئب لو أكل يوسف عليه السلام فسيكون حزن يعقوب عليه مؤبداً على عكس الغدر الأول الذي يكون الحزن في مؤقتاً.

1 يوسف ، 11 ، 12 .

2 محمد الشعراوي ، تفسير الشعراوي ، ج11 ، ص6876 .

3 أبو حيان الأندلسي ، تفسير البحر المحيط ، ت ، عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض ، دار الكتاب العالمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1413هـ ، 1993م ، ج5 ، ص285.

4 يوسف ، 13 .

5 يوسف ، 14 .

6 أبو حيان الأندلسي ، تفسير البحر المحيط ، ج5 ، ص287.

و ذيل الأبناء كلامهم و التماسهم بقولهم : "إنا إذا لخاسرون" و ذلك إلماحا منهم لأبيهم بأنهم - غير مفرطين و لا غافلين عن يوسف عليه السلام لأنهم عصابة عشرة رجال بمثلهم تعصب الأمور و تكفى الخطوب ، فكيف يخاف عليه من الذنب و هذا هو حالهم .

و بالفعل أمضى الإخوة ما دبروه بأن جعلوا أخاهم - يوسف عليه السلام - في الجب ليدخلوا بذلك في حلقة جديدة من الصراع مع أبيهم و هي في قوله تعالى: " وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً * يَبْكُونَ(16) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ(17) وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ(18)"¹ .

و قد أخرج يوسف عليه السلام العودة إلى البيت ذلك اليوم إلى العشاء لأنه "محل الظلمة و ستر للإنفعالات التي توجد على الوجه من الإضطراب و من مناقضة كذب ألسنتهم ، لأنهم لن يخبروا الأب بالواقع الذي حدث بل بحديث مختلق"² .

وراحوا يتباكون تمويها على أبيهم لكيلا يظن أنهم قد اغتالوا يوسف عليه السلام ، فلما سمع يعقوب عليه السلام بكاءهم قال: "مالكم؟ أجرى في الغنم شيء؟ قالوا: لا، قال: فأين يوسف؟ ، قالوا : ذهبنا نستبق فأكله الذئب ، فبكى و صاح و خر مغشيا عليه ، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك و نادوا فلم يجب و وضع يهوذا يده على مخارج نفسه فلم يحس بنفس ولا تحرك عرق فقال : ويل لنا من ديان يوم الدين ضيعنا أخانا و قتلنا أبانا ، فلم يفق إلا ببرد السحر"³ .

و زعم إخوة يوسف عليه السلام أن أباهم لن يصدقهم فيما أعلنوه من أكل الذئب ليوسف عليه السلام و لو كانت تلك هي الحقيقية و بادروه بهذا الزعم قبل اتهامه إياهم و ذلك ليوهموه بصدق ما قالوه ، و عرضوا له أن ما يحمله على عدم تصديقهم هو حبه الشديد ليوسف عليه السلام و تهمته لهم بكراهيته وإرادة الغوائل و المكائد له .

و أحضروا في - زعمهم- بيّنة ليثبتوا صدق دعواهم فجاءوا بقميص يوسف عليه السلام و لطحوه بدم كذب فلم "يكن دم يوسف (بل) كان دم سحلة"⁴ ، فهو دم مفترى . ولما أرادوا أن

1 يوسف ، 16-18 .

2 محمد الشعراوي ، تفسير الشعراوي ، ج5 ، ص 289 .

3 أبو حيان الأندلسي ، تفسير البحر المحيط ، ج5 ، ص 289 .

* السحلة هي: ولد الضأن و الماعز ساعة ولادته ذكرها كان م أنثى ، من : قاموس الجديد للطلاب، علي بن هادية ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1991م-1411هـ، ص 459

4 جلال الدين السيوطي ، الدر المنثور ، ت ، عبد الله تركي ، دار هجر ، مصر ، ط1 ، 1424هـ-2004م ، ج8 ، ص 207 .

يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله هذه العلامة علامة تعارضه و هي سلامة القميص من التنييب إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف عليه السلام وهو لابس القميص ويسلم من التخريق¹.

فاهتدى يعقوب عليه السلام بفراسته و نباهته إلى بطلان دعواهم لذلك أتى بحرف الإضراب "بل" ليطلعهم على استنتاجه وهو أن أنفسهم قد سولت لهم أمرا منكرا شنيعا ، و ليزيد من تهويل الأمر ساقه نكرة – أمرا- لكن يعقوب عليه السلام - و كل الأنبياء و الصالحين- لم يجزع على فقد فلذة كبده بل صبر و التجأ إلى الله و طلب إعانته على الصبر على ما يصفون و يلفقون لأنه لم يصدقهم فيما أذاعوا عليه من أكل الذئب يوسف عليه السلام.

و تمر السنون و معها الأحداث و يمكن ليوسف عليه السلام في الأرض و يأتي إخوة يوسف عليه السلام ليبتاعوا فيطلب إليهم يوسف عليه السلام إيتاءه بأخ لهم من أبيهم و إن لم يأتوه به فلن يكيل لهم .

و عند رجوعهم سيدخلون في صراع جديد مع أبيهم و هو في قوله تعالى " فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتُلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(63) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالَهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ آخَانًا وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ(65) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ(66)"² .

فلما عاد الأبناء إلى يعقوب عليه السلام ابتدؤوه بخبر منع الكيل منهم في القادم من المرات إذا لم يصطحبوا أخاهم معهم . و بعد هذا الخبر مباشرة راحوا يراودون يعقوب عليه السلام عن ابنه - كما وعدوا يوسف عليه السلام - و عاهدوه بحفظه و رده إليه سالما.

إلا أن يعقوب عليه السلام ذكرهم بعهودهم و موثيقهم السابقة التي قطعوها له حين أوردوا أخذ يوسف عليه السلام معهم ليرتع و يلعب فضيعوه و أدموا قلب يعقوب عليه السلام .

ويريد يعقوب عليه السلام بهذا التذكير إبلاغ بنيه بأنه متردد في إرساله معهم ، بالإضافة إلى حثهم على عدم تكرار ما فعلوه مع يوسف عليه السلام .

1 أحمد القرطبي ، تفسير القرطبي ، ج11، ص287 .

2 يوسف ، 63-66 .

وذيل يعقوب عليه السلام كلامه بقوله: "و الله خير حافظا و هو أرحم الراحمين". فأراد الأب بقوله هذا تقرير العقيدة في قلوب أبنائه و تثبيتها حاثا إياهم على التوكل على الله تعالى في حفظ أخيهم ، وأراد بقوله : " وهو أرحم الراحمين " ؛ أن الله تعالى هو أرحم الراحمين بي بأن لا يجمع عليّ مصيبتين ، و هو رحيم كذلك بأبنائي بألا يصيبهم مكروه .

و قول يعقوب عليه السلام السابق تعريض منه بقبوله إرسال ابنه معهم لأنه مجبر و غير مخير في ذلك فإما أن يرسله معهم و إما أن يحرموا الميرة و يتعرضوا بذلك إلى الهلاك لأن السنين الشداد بلغتهم و لم تترك لهم ما يقتاتون عليه .

و لما فتحوا أمتعتهم التي جلبوها من مصر و جدوا بضاعتهم التي أخذوها معهم ردت إليهم مع ما أعطاهم يوسف عليه السلام من طعام و زاد ، فقالوا : " قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بَضَاعَتَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ"¹ .

فجملة: " يا أبانا" ، " مستأنفة استأنافا بيانيا لترقب السامع أن يعلم ماذا صدر منهم حين فاجأهم وجدان بضاعتهم في ضمن متاعهم لأنها مفاجأة غريبة ، و معنى قولهم : "ما نبغي" : أنه " ما نبغي في القول و ما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك و إكرامه و كانوا قالوا له : إنا قدمنا على خير رجل أنزلنا و أكرمنا كرامة لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته ، أو ما نبغي شيء وراء ما فعل بنا من الإحسان ، أو على الإستفهام بمعنى : أي شيء نطلب وراء هذا"² الذي وجدناه من عزيز مصر ؟ . و دليل إكرامه أنه أرجع إلينا بضاعتنا والتي سنستظهرها و نمتار بها في المرة القادمة و لا نطلب منك - يا أبانا- بضاعة أخرى للميرة .

و قد رد يوسف عليه السلام بضاعتهم إليهم لأنه "لأنه خاف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى"³ .

و جملة "نمير أهلنا" معطوفة على جملة "هذه بضاعتنا ردت إلينا" لأن في البضاعة المرودة ثمن ما يحتاجون إليه من جلب الطعام – كما أسلفنا-.

1 يوسف ، 65 .

2 جار الله الزمخشري ، الكشاف ، ج 1 ، ص 486 .

3 فخر الدين محمد الرازي ، التفسير الكبير ، م 9 ، ج 18 ، ص 138 .

و جملة "نحفظ أخانا" " معطوفة على جملة "نمير أهلنا" لأن " الميرة تقتضي ارتحالا للجب و كانوا قد سألوا أباهم أن يكون أخوهم رفيقا لهم في الإرتحال المذكور، فكانت المناسبة بين جملة "نمير أهلنا" و جملة "نحفظ أخانا" بهذا الإعتبار فذكروا ذلك تطمينا لخاطر أبيهم"¹ .

و أما قولهم : "و نزداد كيل بعير" ، فلأن يوسف كان لا يعطي الممتار إلا حمل بعير و هذه حكمة منه -عليه السلام- في تدبير و تسيير سنوات القحط ، فإذا ذهب أخوهم معهم زادهم يوسف عليه السلام حمل البعير الخاص بأخيهم لأن ما يمتارونه هم يسير لا يكفيهم أو لأن زيادة حمل بعير يسير على يوسف عليه السلام مقارنة مع إحسانه و كرمه الكبير.

و بعد كل هذه المراديات أبي يعقوب عليه السلام أن يرسل أخاهم معهم حتى يعطوه موثقا من الله و عهدا بأن يرجعوه سالما إلا أن يغلبوا على أمرهم و بعد أن يستفرغوا جهدهم في حفظه .

و أشهد يعقوب عليه السلام الله عز وجل على عهدهم و ذلك لكي يراعوا حرمة ذلك العهد فلا يتوانوا في حفظ أخيهم و أن يردوه سالما غانما بكيل بعير .

و صدق خوف يعقوب عليه السلام على ابنه لأن الإخوة قد غلبوا على أمرهم بعد أن كاد الله سبحانه و تعالى ليوسف عليه السلام لأخذ أخيه عنده لحكمة ما .

و بذلك دخل الإخوة مع أبيهم في صراع جديد و هو في قوله تعالى: " فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكَمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(80) ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ(81) وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ(82) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(83) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ(84) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ(85) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(86)"² .

¹ محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج13 ، ص18.

² يوسف ، 86-80 .

فلما يئس الإخوة من رد أخيهم انفردوا وانحازوا متناجين متشاورين في ما ألم بهم من عظيم الخطب . فبدأ كبيرهم مذكرا إياهم بموثق الله الذي أبرموه مع أبيهم على رد أخيهم – بنيامين- لكنهم فرطوا فيه لما خلفوه عند العزيز كما فرطوا في يوسف عليه السلام من قبل لما ألقوه في غيابة الجب .

فاستحى كبيرهم أن يرجع إلى أبيه مع إخوته دون بنيامين لأن الأب مكذبهم لا محالة مهما أتوا من معاذير لأنه جرب الكذب منهم في أمر يوسف عليه السلام فقرر الأخ الكبير عدم الرجوع حتى يأذن له أبوه أو أن يحكم الله تعالى له برد أخيه .

فأوصاهم - الأخ الأكبر- بأن يخبروا أباهم بالحقيقة ، و هي أن ابنه قد سرق و أنهم ما شهدوا إلا بما علموا أسرق أم سرق .

و قصدوا من قولهم "و ما كنا للغيب حافظين" ؛ "الإحتراس من تحقق كونه سرق و إما لقصد التلطف مع أبيهم في نسبة ابنه إلى السرقة ، و إما لأنهم علموا من أمانة أخيهم ما خالجهم به الشك في وقوع السرقة منه"¹ .

ثم لقن الأخ الإخوة البينة على صدق دعواهم و هي أن يسأل يعقوب عليه السلام أهل القرية التي كانوا فيها و الرفقة التي رجعوا معها .

لكن يعقوب عليه السلام لم يصدقهم و ذلك لقرائن ظهرت له ، فالأولى: تجريبه الكذب منهم في أمر يوسف عليه السلام . و الثانية: أنهم أرادوا له الكيد و ذلك لما أفتوا العزيز بأخذ بعين من سرق فيسترق لأن هذا الحكم من شريعة يعقوب عليه السلام و ليس في شرع أحد من الناس في ذلك الزمان .

و رغم تكذيب يعقوب عليه السلام لأبنائه فيما أخبروه به إلا أنه لم يجزع و لم يقنط من رحمة الله بأن يجعل له من هذا الهم فرجا و من هذا الضيق مخرجا .

و جملة "إنه هو العليم الحكيم" هي " تعليل لرجائه من الله ، بأن الله عليم ، فلا تخفى عليه مواقعهم* المتفرقة ، حكيم ؛ فهو قادر على إيجاد أسباب جمعهم بعد التفرق"² .

1 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج13 ، ص40.
* يقصد بهم : يوسف عليه السلام و شقيقه و الأخ الأكبر الذي لم يبرح أرض مصر.

2 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج13 ، ص41.

فاعتزل يعقوب عليه السلام أبنائه مهموما مكظوما لأن فقد ابنه الآخر – بنيامين- جدد عليه حزنه القديم الكبير على يوسف عليه السلام . فما كان من أبنائه إلا أن شنعوا عليه حزنه وكظمه لأنه بسببهما سيكون حرضا* و مشرفا على الهلاك و" غرضهم منع يعقوب عليه السلام من البكاء و الحزن شفقة عليه و إن كانوا السبب في ذلك"¹ .

فرد عليهم يعقوب عليه السلام مبينا لهم بأنه يشكوا همه و حزنه و بثه** إلى الله لأنه هو الكفيل سبحانه بأن يفرج كربته و يواسي لوعته .

و خاطبهم قائلا: "و أعلم من الله ما لا تعلمون" و ذلك إما عن وحي من الله و إما لما لديه من قرائن تدل على حياة يوسف عليه السلام ، بدءا من الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام والتي عبرها يعقوب عليه السلام بأن سيكون له شأن عظيم و سيجتمع جميعهم كما تجتمع الكواكب و الشمس و القمر ، و انتهاء بالكذبة التي ساقها إخوة يوسف عليه السلام من أكل الذئب له .

و من هذا الأمل القائم ندب يعقوب عليه السلام بنيه إلى الذهاب و التحسس*** من يوسف عليه السلام و أخيه و أن لا يياسوا من رحمة الله في العثور عليهم و ردهم .

و أصبح أمل يعقوب عليه السلام حقيقة لما عثر الإخوة على يوسف عليه السلام فوجدوه هو عزيز مصر فحمل إخوته قميصه و طلب منهم أن يأوتوه بأهلهم جميعا.

و لما وجد يعقوب عليه السلام رائحة قميص يوسف عليه السلام أخبر أبنائه بما يجد فدخل معهم في صراع آخر و هو في قوله تعالى: "وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفِئِدُونُ"**** (94) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ(95)"² .

فبمجرد أن فصلت العير خارجة من مصر متوجهة إلى بادية الشام حتى وجد يعقوب عليه السلام رائحة يوسف عليه السلام فتيقن أنه مازال حيا .

* الحرض: الذي ينهكه الرم أو الحب أو الحزن إلى فساد الأعضاء و البدن و الحس ،(المحرر الوجيز ،ج3 ، ص273)

1 أبو عبد الله محمد القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن الكريم ،ج11 ، ص435.

** البث: هي المصيبة التي لا يقدر أحد على كتمانها فينشرها(تفسير الشعراوي ،ج11 ، ص617).

*** التحسس: طلب معرفة الشيء بالبحث الدقيق عنه (تفسير الشعراوي ،ج11 ، ص618)

**** الفند: فساد الرأي ، إما لجهل أو لهوى غالب ، أو كذب أو لضعف أو لعجز لذهاب العقل من الهرم ،(تفسير المحرر الوجيز

ج3 ، ص279)

2 يوسف ، 94-95 .

و لما أخبر أهله بما وجد من ريح يوسف عليه السلام نسبوه إلى الفند و الخرف و ذهاب عقله من الهرم و زادوا أن وصفوه بالضلال قاصدين ؛ إنك " لفي ذهابك عن الصواب قدما في إفراط محبتك ليوسف و لهجك بذكره و رجائك للقائه . و كان عندهم قد مات"¹ .

فقالوا لو الدهم "كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لو الدهم ولا لنبي الله عليه السلام"² .

وبهذه الحلقة ينتهي صراع يعقوب عليه السلام مع أبنائه و بعدها نباشر عرض مقام صراع جديد و هو :

6. مقام الصراع بين امرأة العزيز و النسوة :

و إنه لما ذاع خبر مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام في المدينة جعلت النسوة - كعادتهن- يلكن هذا الحديث و يغتبن به امرأة العزيز، و ذلك ما جاء في قوله جلّ سلطانه: " وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ(30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِن هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ(31) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ(32)"³ .

وقيل أنهم كن خمسة نسوة هن : "امرأة خبازه (الملك) و امرأة ساقيه و امرأة بوابه و امرأة سجانته و امرأة صاحب دوابه"⁴ .

ثم إنهن لم يسمينها باسمها الصريح بل صرحوا بإضافتها إلى العزيز مبالغة في التشنيع لأن النفوس أقبل لسماع ذوي الأخطار و ما يجري لهم .

و عبرن ب: "تراود" و هو فعل مضارع بالرغم من أن فعل المراودة مضى و انقضى و ذلك " للدلالة على أن المراودة صارت سجية لها تخادعه دائما على نفسه - يوسف عليه السلام

1 جار الله الزمخشري ، الكشاف ، ج 1، ص 504 .

2 عبد الحق بن غالب الأندلسي ، المحرر الوجيز ، ج 3 ، ص 279.

3 يوسف ، 30-32 .

4 أبو حيان الأندلسي ، تفسير البحر المحيط ، ج 5 ، ص 301 .

- كما أن صيغة المضارع - تراود - تفيد استحضر تلك الحالة العجيبة لقصد الإنكار عليها في أنفسهن و لومها على صنيعها" ¹ .

ثم نيهن إلى سبب ديمومة المراودة و هي كونه قد شغفها حبا أي : أن حبه قد بلغ شغاف قلبها و تمكن منه و هذا من ضلالها و بعدها عن الصواب في حب فتاها – حسب اعتقادهن - و روي أن غيبة هؤلاء النسوة إنما " قصدن بها المكر بامرأة العزيز ليغضبنها حتى تعرض عليهن يوسف ليظهر عذرها أو يحق لومها" ² .

و لما سمعت امرأة العزيز بمكرهن و غيبتهن لها و سوء مقالتهن فيها دعتهن إلى مأدبة في قصرها و هيأت لهن مجلسا خاصا يليق بشأنهن و آتت كل واحدة منهن سكيناً لتقطيع ما يقدم لهن من طعام ثم أمرت يوسف عليه السلام بأن يخرج عليهن ، فلما رأيته أعظمه و دهش من عاينوه من جمال فائق و حسن باهر قطعن أيديهن أي : "جرحنها . و التضعيف- قطعن- للتكثير إما بالنسبة لكثرة القاطعات و إما بالنسبة لتكثير الحزّ في يد كل واحد منهن فالجرح كأنه وقع مرارا في يد الواحدة و صاحبته لا تشعر لما ذهلت بما راعها من جمال يوسف فكأنها غابت عن حسها" ³ .

و بهذا جابهت امرأة العزيز النسوة بمكر كمكرهن و بكيد من كيدهن . و لما علمت أنهن قد أذرنها في مراودتها ليوسف عليه السلام خاطبتهن قائلة: " فهذا الذي أصابكن لرؤيتكن إياه و في نظرة منكن نظرتن إليه ما أصابكن من ذهاب العقل و غروب الفهم ولها إليه حتى قطعتن أيديكن و هو الذي لمتنني في حبي إياه و شغف فؤادي به فقلتن : قد شغف امرأة العزيز فتاها حبا إنا لنراها في ضلال مبين" ⁴ .

و بهذا المقام من الصراع بين امرأة العزيز و النسوة ينتهي هذا النوع من المقام – مقام الصراع بين شخصيات القصة- لنتنقل من هنا إلى هناك إلى نوع جديد من مقام الصراع و هو مقام الصراع الداخلي أو النفسي للشخصية

1 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج12 ، ص261.

2 عبد الحق بن غالب الأندلسي ، المحرر الوجيز ، ج3 ، ص 238.

3 أبو حيان الأندلسي ، تفسير البحر المحيط ، ج5 ، ص 303 .

4 أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، جامع البيان عن تأويل أي القرآن ، ت ، عبد الله تركي ، دار هجر ، القاهرة ، مصر ،

1422هـ-2001م ، ط1 ، ج13 ، ص141 .

ثانيا : مقام الصراع الداخلي(النفسي) للشخصية القرآنية في سورة يوسف عليه السلام :

و هذا الصراع هو " صراع داخلي يدور في كيان الإنسان حين يعرض له أمر فيتنازعه عقله و هواه ، كل منهما يريد أن يستولي على إرادته و يخضعها لمشيئته حيال الأمر الذي عرض "1 .

و بناء على هذا المفهوم للصراع الداخلي للشخصية نقف على عدة مقامات للصراع كل واحد منه خص شخصية معينة و منها :

أ. مقام الصراع الداخلي ليوسف عليه السلام :

و هو أول صراع داخلي نلتقي به في قصة يوسف عليه السلام و الذي جاء في قوله تعالى : " قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرَفْ عَلَيَّ كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ "2 .

و إنه لما تأكد ليوسف عليه السلام عزم امرأة العزيز الإيقاع به بأن يمكنها من نفسه لأنها ما تركت ترهيبا و لا ترغيبا إلا و أنت به ومنهما أن " امرأة العزيز في غاية الحسن . و الثاني: أنها كانت ذات مال و ثروة و كانت على عزم أن تبذل الكل ليوسف بتقدير أن يساعدها على مطلوبها . و الثالث: أن النسوة اجتمعن عليه وكل واحدة منهن كانت ترغبه وتخوفه بطريق آخر ومكر النساء في هذا الباب شديد . و الرابع : أنه عليه السلام كان خائفا من شرها و إقدامها على قتله و إهلاكه . فاجتمع في حق يوسف عليه السلام جميع جهات الترغيب و جميع جهات التخويف على مخالفتها . فخاف عليه السلام أن تأثر هذه الأسباب القوية الكثيرة فيه"3 ، فالتجأ إلى الله تعالى و اعتصم به ليصرف عنه كيدهن .

وقد فضل يوسف عليه السلام السجن على أن يطاوعهن ، فقال:"رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه " ، فهذه العبارة " ليست على بابها من التفصيل ، لأنه لم يحب ما يدعونه إليه قط (ولم يحب السجن أيضا) ، و إنما هذان شران فآثر أحد الشرين على الآخر و إن كان في أحدهما

1 عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآني ، ص 216 .

2 يوسف 33

3 فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، م9 ، ج17 ، ص108

مشقة و في الآخرة لذة ، لكن بما يترتب على تلك اللذة من معصية الله سوء العاقبة لم يخطر له ببال و لما في الآخر من احتمال المشقّ في ذات الله "1 آثره و تمنى حدوثه .

و لذلك قال يوسف عليه السلام : "أصب إليهن" ، و لم يقل سواها ، لأن الصبو؛ يعني الميل النفسي، فأقصى ما ينلنه منه- إذا - هو الصبو . و حتى هذا الميل النفسي دعا الله أن يصرف عنه ، فالدعاء عادة الأنبياء و الصالحين و ديدنهم في مثل هذه المواقف فيفرون إلى ألطف الله جل و علا مناجين إياه طالبين منه العون و الصبر و الثبات .

و ثاني مقامات الصراع الداخلي ليوسف عليه السلام عندما جعل على خزائن الأرض و أتى إخوته للميرة في المرة في المرة الثانية حين كاد لأخيه و أخذه عنده لمّا دبر له حادث السرقة و اكتشف أن شقيق يوسف عليه السلام هو السارق فقال الإخوة : " إن يَسْرُقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لهُ مِنْ قَبْلُ "2 - يعنون يوسف عليه السلام- " فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَكَمْ يُبْدِيهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ"3 .

فلما سمع يوسف عليه السلام قولهم هذا قال: " أنتم شر مكانا " " سرا و لم يبدها لهم"4 ، فهو لم يظهر الحزازة التي و قعت في نفسه من قولهم بل كظمها و لم يغضب و "أعرض عن زجرهم و عقابهم مع أنها طعن فيه و كذب عليه"5 .

فكظم يوسف عليه السلام غيظه و صارع نفسه و صبر على أذاهم و كان قادرا عليهم لكنه رد عليهم في نفسه قائلا : " أنتم شر مكانا و الله أعلم بما تصفون"6 ، أي : أنكم شر " منزلة عند الله تعالى لما أقدمتهم عليه من ظلم أخيكم و عقوق أبيكم فأخذتم أخاكم و طرحتموه في الجب ثم قلتم لأبيكم أن الذئب أكله و أنتم كاذبون... ، ثم بعد المدة الطويلة و الزمان الممتد ما زال الحقد و الغضب في قلوبكم فرميتموه بالسرقة"7 ، فإله أعلم بافتراءكم و أعلم ببراءتهما مما تصفون من السرقة .

1 أبو حيان الأندلسي ، تفسير البحر المحيط ، ج5 ، ص306

2 يوسف ، 77 .

3 يوسف ، 77 .

4 أبو جعفر جرير الطبري ، جامع البيان ، ج13 ، ص141.

5 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج13 ، ص35.

6 يوسف ، 77 .

7 فخر الدين الرازي التفسير الكبير ، م9 ، ج17 ، ص152

ب. مقام الصراع الداخلي ليعقوب عليه السلام :

و جاء هذا المقام في قوله تعالى: " وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ* " ¹ .

و كان حزن يعقوب عليه السلام هذا بعد أن ضيع الإخوة ابنه الثاني – بنيامين- و خلفوا وراءهم أخاهم الكبير في مصر. فأعرض يعقوب عليه السلام عن أبنائه " كراهة لما جاؤوا به و أنه ساء ظنه بهم و لم يصدق قولهم و جعل يتفجع و يتأسف" ² .

و لما تولى عنهم و اختلى بنفسه تجدد حزنه على يوسف عليه السلام فقال: "يا أسفي على يوسف" . فلماذا تأسف يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام و لم يتأسف على إخوته الغائبين كذلك ؟ . و السبب في ذلك أن يعقوب عليه السلام لا يعلم بأمر يوسف عليه السلام " أحي هو أم ميت بخلاف إخوته ، و لأنه كان أصل الرزايا عنده إذ ترتبت عليه و كان أحب أولاده إليه و كان دائما يذكره و لا ينساه" ³ .

و من شدة الحزن و الوجد لفقد أولاده ابيضت عينا يعقوب عليه السلام كمدا عليهم فعمي من كثرة البكاء ، لكنه كظم ما كان يجد و أمسك حزنه فلم يظهره و لم يشك .

فراح هذا النبي المفجوع يدافع نفسه و يصارعها و يتجلد عليها متصبرا برجاء عودتهم جميعا لأنه يعلم من الله ما لا يعلم أبناؤه .

و مما يلاحظ على هذا النوع من الصراع – الصراع الداخلي للشخصية القرآنية- أنه محدود في القصص القرآني فنحن " لا ننتظر أن نشهد في القرآن قصة كاملة تدور هذا المدار إذ ذلك يجعلنا بمشهد من قصة تدور في الفراغ ، و هذا من شأنه أن يبعث السأم و الملالة حيث لا تكون هناك حركة بالمعنى المفهوم و إنما هناك احتراق داخلي لا يرى له أثر ظاهر" ⁴ .

فالصراع النفسي يذكر بقدر الحاجة إليه ، فما هو إلا مشاهد قصيرة و وقفات عابرة تعرض أثناء القصة .

* كظيم: هو مثل كاظم : و هو الممسك على حزنه لا يظهره و لا يشكو(تفسير بن زمنين ج 5، ص337)

1 يوسف ، 84 .

2 أبو حيان الأندلسي ، تفسير البحر المحيط ، ج 5 ، ص 333 .

3 أبو حيان الأندلسي ، المرجع السابق ، ج 5 ، ص 333 .

4 عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآني ، ص 216 .

ثالثاً: مقام الصراع بين الإنسان و الطبيعة :

و نقصد به ذلك الصراع الذي يدور بين الإنسان و قوى الطبيعة المتحدية له و ما يبذله من جهد لكي ينتصر عليها لتهناً معيشته .

و هذا الصراع بين الإنسان و الطبيعة "صراع ليس فيه ما في الصراع بين الإنسان و الإنسان من عداوة و حسد و بغضة ، لأن هذه الدوافع إنما تقوم بين المتماتلين جنساً و المتقاربين درجة و المتناسبين صناعة و عملاً"¹ .

و نجد هذا الصراع في رؤيا الملك و التي تقع في قوله تعالى: " وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ"² .

فقد رأى ملك مصر رؤيا هالته و أفزعته فاستقزع جهده لتؤول له . وفحوى هذه الرؤيا أنه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس ، و سبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ، و رأى سبع سنبلات خضر أنعقد حبها و سبع أخرى يابسات قد استحصدت و أدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها.

فتيقن الملك بأن خطبا عظيما سيحدث من وراء هذه الرؤيا ، لكنه لم يقف على تأويل لها و هذا ما زاد من فزعه حتى عبّرها له يوسف عليه السلام عند ذاك سكن روعه .

و ما يهمننا هنا هو ذلك الصراع الذي كان بين أهل مصر و ما حولها و بين الطبيعة خاصة في سنوات العجف و الشدة حيث لاقى منها الناس الأمرين . حتى أن الجفاف وصل إلى بادية الشام أين يقيم يعقوب عليه السلام و أهله و دليل ذلك أنهم ذهبوا إلى مصر للميرة و جلب الطعام .

و لم يكن تعبير يوسف عليه السلام لرؤيا الملك مجرد إعلامه بمآلها بل زاد على ذلك بأن أسدى إليهم خطة ذكية لتدبير سنوات الخصب و الجذب آتت ثمارها- و هذا ما سنقف عليه في

1 عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآني ، ص233 .

2 يوسف ، 43 ،

مقام الإنفراج لهذا المقام من الصراع - . فهذا الصراع الذي دار بين الإنسان و الطبيعة " لم يرق فيه دم و لم يزهق فيه أرواح و هكذا كل صراع مع الطبيعة لا ينجلي إلا عن كسب و خير"¹ .

و الملاحظ لهذا النوع من الصراع يجده محدودا في القرآن الكريم - مثل صراع الداخلي للشخصية- لأنه ليس صراعا بالمعنى المفهوم بل هو جهاد و كفاح ضد قوى الطبيعة المتحدية للإنسان .

و بهذا النوع من مقامات الصراع ينتهي بنا عرض مقامات الصراع في قصة يوسف عليه السلام ، لنباشر بعده عرض مقامات الإنفراج في هذه القصة .

3. مقام الإنفراج (الحل) :

و نقصد به ذلك المقام العام أو المقامات الجزئية التي تكون بمثابة حل و انفراج لمقام صراع تقدمها .

أ. مقام الإنفراج العام :

و كما كان هناك مقاما عاما للصراع يكون - تبعا لذلك - وجود مقام عام للإنفراج . و هذا الأخير واقع في قوله جل شأنه : " فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ(99) وَرَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(100)"² .

فبعد " كَرَّ الأَعْوَامِ و انقضاء الأيام و بعد اليأس و القنوط و بعد الألم و الضيق و بعد الإمتحان و الإبتلاء و بعد الشوق المضني و الحزن الكامد و اللهف الضامئ الشديد"³ اجتمع شمل الأحبة الذين فرقت بينهم الغيرة و الحسد و نزع الشيطان. فأبدلت كل مشقة و عنت ببهجة و فرح و انشراح .

1 عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآني ، ص234 .

2 يوسف ، 99-100 .

3 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، م4 ، ص 2029 .

و بلهفة يسارع يوسف عليه السلام إلى معانقة أبويه مبشرا أهله بالأمن و السعة و طيب العيش معه في مصر الحاضرة .

فما لبث أهل يوسف عليه السلام أن سجدوا له ، فوقرت في ذهنه تلك الرؤيا التي رآها و هو صبي صغير و أيقن أن هذا هو تأويلها . فعبر الشمس و القمر بأبويه و الأحد عشر كوكبا بإخوته ، سجدوا ليوسف عليه السلام شكرا لله أن جمع بينهم بعد طول العهد .

و قد ذكر يوسف عليه السلام إحسان الله به عندما أخرجه من السجن و لم يذكر إخراجهم من الجب و ذلك لوجوه : " الأول : أنه قال لإخوته " لا تثريب عليكم اليوم و لو ذكر واقعة البئر لكان ذلك تثريبا لهم فكان إهماله جار مجري الكرم . و الثاني : أنه لما أخرج من الجب لم يصير ملكا بل صيره عبدا ، و أما لما خرج من السجن صيره ملكا ، فكان هذا الإخراج أقرب من أن يكون إنعاما كاملا . و الثالث : أنه لما خرج من البئر وقع في المضار الحاصلة بسبب تهمة المرأة ، فلما خرج من السجن وصل إلى أبيه و إخوته و زالت التهمة فكان هذا أقرب إلى المنفعة"¹ .

و من إحسان الله بيوسف عليه السلام و بأهله كذلك أن جاء بهم من البدو وهذا "يعم جمع الشمل و التنقل من الشقاوة إلى النعمة بسكنى الحاضرة ، و كان منزل يعقوب عليه السلام بأطراف الشام في بادية فلسطين و كان رب إبل و غنم و بادية"² .

فلما اجتمع شمل الأهل بعد الفراق - الذي كان سببه الإخوة - ، قال يوسف عليه السلام : " بعد أن نزع الشيطان بيني و بين إخوتي " . فكلمة "بعد" "اقتضت أن ذلك الشيء انقضى أثره . و قد ألمّ به إجمالا اقتصارا على شكر النعمة و إعراضا عن التذكير بتلك الحوادث المكدرة للصلة بينه و بين إخوته فمرّ بها مرّ الكرام و باعدها عنهم قدر الإمكان إذ ناطها بنزع الشيطان"³ .

و هذا الإجتماع كان بلطف من الله الحكيم ، فهو عزّ و جلّ لطيف لأنه يسر أسباب اللقاء و حصول الألفة و المحبة و طيب العيش و فراغ البال من كل مكر و منغص.

1 فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج3 ، ص 176 .

2 عبد الحق بن غالب الأندلسي ، تفسير المحرر الوجيز ، ج3 ، ص 282 .

3 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج13 ، ص 57 .

وكان هذا المقام الإنفراجي العام لقصة يوسف عليه السلام بمثابة خاتمة سعيدة لكل أشخاص القصة ، و فيه رأى يوسف عليه السلام رؤياه واقعا ماثلا أمامه . و هذا المقام العام الإنفراجي ليس الوحيد في قصة يوسف عليه السلام بل ضمّت في جنباتها عدة مقامات إنفراجية جزئية .

ب. مقامات الإنفراج الجزئية :

و هنا نعرض هذه المقامات الإنفراجية الجزئية وفقا لعرض مقامات الصراع الجزئية ، أي :
أنا سنورد مقامات الإنفراج الجزئية متسلسلة و مرتبة لتكون نظائرا لمقامات الصراع الجزئية .

أولا : مقامات الإنفراج بين شخصيات القصة :

1. مقامات الإنفراج بين يوسف عليه السلام و إخوته :

و إنه لما بلغ الصراع بين يوسف و إخوته ذروته رق قلب يوسف عليه السلام على إخوته و أبيه فأماط اللثام عن شخصيته الحقيقية فعرفه إخوته فقالوا: " تَاللّٰهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ" ¹ .

فرد عليهم يوسف قائلا : " لا تُتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ" ² .

فمهد الإخوة لطلبهم المسامحة بذكر تفضيل الله عز وجل ليوسف عليه السلام عليهم و هذا " استنزال منهم (لإحسان) يوسف و إقرار بالذنب في ضمنه استغفار منه" ³ .

ثم أقرّوا بذنبهم صراحة في قولهم : " و إن كنّا لخاطئين " ، أي : " و ما كنّا في فعلنا الذي فعلنا بك - في تفریقنا بينك و بين أبيك و أخيك و غير ذلك من صنعنا بك- إلا خاطئين" ⁴ .

و أظهر الإخوة انكسارا و خجالة كبيرة و ندما و حسرة معلنين توبة نصوحا مما اقترفوا في الزمن السالف .

1 يوسف ، 91 .

2 يوسف ، 92 .

3 عبد الحق بن غالب الأندلسي ، تفسير المحرر الوجيز ، ج3 ، ص 277 .

4 أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، جامع البيان ، ج13 ، ص 329 .

و لما رأى يوسف عليه السلام علامات التوبة و الندم على إخوته سامحهم و تجاوز عنهم بقوله : " لا تثريب عليكم " أي : " لا تعبير و لا إفساد لما بيني و بينكم من الحرمة و حق الأخوة و لكن لكم عندي الصفح و العفو" ¹ .

فتنازل يوسف عليه السلام عن حقه نفسه بمسامحتهم ثم دعا الله أن يغفر لإخوته ذنبهم و ظلمهم . و لما " دعا لهم بالمغفرة أخبر عن الله بالصفة التي هي سبب الغفران فهو يرجو منه قبول دعائه لهم بالمغفرة" ² .

و بهذا المقام انفرج الصراع الذي كان بين يوسف عليه السلام و إخوته . و تنتقل بعده إلى مقام انفراجي آخر بين يوسف عليه السلام و بين شخصيات هذه القصة هن : امرأة العزيز و النسوة .

2. مقام الإنفراج بين يوسف عليه السلام و امرأة العزيز و النسوة :

و أول مقام للإنفراج بعد أول مقام للصراع بين يوسف عليه السلام و امرأة العزيز جاء في قوله تعالى: " فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (29)" ³ .

و بشهادة الشاهد الذي هو من أهل امرأة العزيز ظهرت براءة يوسف عليه السلام مما رمته به زوجة العزيز . و دليل الشاهد قد القميص من الدبر ، فوقفوا على صدق يوسف عليه السلام و كذب امرأة العزيز .

و لم يصرح العزيز ببراءة يوسف عليه السلام علنا بل ألمح إليها ضمنا بقوله : " إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ" ⁴ .

و قول العزيز هذا شهادة على براءة يوسف عليه السلام لما حشد فيه من قرائن تثبتتها، فأولها : أنه وصف زوجته بالكيد العظيم ؛ و يعني الإحتيال في الخفاء ، و هو أمر تشتهر به النسوة و خاصة نساء القصور لكونهن أكثر تفرغا من غيرهن و أكثر تأنسا بأمثالهن . و ثانيها : طلبه من يوسف عليه السلام أن يعرض عن " ذكر هذه الواقعة حتى لا ينتشر خبرها و لا يحصل

1 أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، جامع البيان ، ج 13 ، ص 330 .

2 أبو حيان الأندلسي ، تفسير البحر المحيط ، ج 5 ، ص 339 .

3 يوسف ، 28-29 .

4 يوسف ، 29 .

العار العظيم بسببها"¹ . وثالثها : طلب العزيز من زوجته أن تستغفر لذنبيها ، فهي إذا مذنبه فيكون يوسف عليه السلام تبعاً لذلك بريئاً . وأما قوله : "إنك كنت من الخاطئين" فهو تأكيد من العزيز على أنها مذنبه فهو يعلم أنها " كانت كثيرة الخطأ فيما تقدم و هذا أحد ما يدل على أن الزوج عرف أول الأمر أن الذنب للمرأة لا ليوسف لأنه كان يعرف عنها إقدامها على ما لا ينبغي"² .

و هكذا بانث براءة يوسف عليه السلام مما قذف به فانفرج به هذا المقام بعد الضيق. لكن امرأة العزيز لم تياس بل عاودت الكرة ، لكن هذه المرة بصحبة نسوة أخريات حضرن إلى بيتها لتعرض عليهن يوسف عليه السلام فرحن جميعهن يراودنه عن نفسه فما كان منه عليه السلام إلا أن لجأ إلى الله داعياً إياه أن يصرف عنه كيدهن ، فجاء الفرج سريعاً ، وهو في قوله تعالى: "فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"³ .

و هذا الصرف من الله قد يكون " بإدخال اليأس في نفوسهن من استجابته لهن بعد هذه التجربة أو بزيادة انصرافه عن الإغراء حتى لا يحس في نفسه أثراً منه أو لهما جميعاً"⁴ .

و عطفت جملة "فاستجاب له ربه" بفاء التعقيب ؛ " إشارة إلى أن الله عجل إجابة دعائه الذي تضمن قوله "و إلا تصرف عني كيدهن"⁵ .

و جملة " إنه هو السميع العليم" في موضع العلة لـ : "استجاب المعطوف بفاء التعقيب أي: أجاب دعائه بدون مهلة لأنه سريع الإجابة عليم بالضمائر الخالصة ، فالسمع مستعمل في إجابة المطلوب"⁶ .

و هكذا اجتاز يوسف عليه السلام محنته هذه مع امرأة العزيز و صاحباتها بلطف الله و رعايته لأن يوسف عليه السلام كان من عباد الله المخلصين .

و أما آخر حلقة من حلقات الإنفراج بين يوسف عليه السلام و بين امرأة العزيز و النسوة جاءت في سياق تأويل يوسف عليه السلام لرؤيا الملك ، لما أرسل الأخير طالبا إحضار يوسف

1 فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ،م9 ، ج17 ،ص 103 .

2 فخر الدين الرازي ، المرجع السابق ، م9 ، ج17 ،ص 103 .

3 يوسف ، 34 .

4 سيد قطب ، في ظلال القرآن ،م4 ،ص 1985 .

5 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج12 ، ص 267 .

6 محمد الطاهر بن عاشور ، المرجع السابق ، ج 12 ، ص 267 .

عليه السلام و إخراجهم من السجن ، لكن يوسف عليه السلام أبى إلا أن يستقصي الملك سبب إدخاله السجن أبحق استقر في ظلمته أم يبطل ؟ .

و هذه الحلقة من الإنفراج جاءت في قوله تعالى: " وَقَالَ الْمَلِكُ انثوني به فُلَمَا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قُطِعَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ(50) قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ فُلنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ(51) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ(52) وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ(53)"¹ .

و بالفعل ذهب الملك يستقصي عن أمر النسوة سائلا إياهن هل راودتن يوسف عن نفسه ؟ فسار عن بالنفي بقولهن: " حاش لله ما علمنا عليه من سوء " . فأتين بعبارة بالغن فيها النفي و التنزيه – نفي المرادة و تنزيه يوسف عليه السلام- . و لم يذكر يوسف عليه السلام امرأة العزيز ضمن المرادات – و هي التي راودته و أساءت إليه و كانت السبب في سجنه- و ذلك تأدبا منه عليه السلام و حفظا لحقها لأنها أكرمت مثواه في صباه ، بالإضافة إلى أن سؤال ذوي المنزلة الرفيعة في السلطة يستجلب الحرج فقد لا يسألها الملك إطلاقا رعاية لحق زوجها - العزيز- .

و لم تذكر النسوة امرأة العزيز- كذلك - و ذلك خشية منها أو مودة لها فاقتصرن في ردهن على سؤال الملك بنفي المرادة عن أنفسهن فقط .

و لما رأت امرأة العزيز نبيل موقف يوسف عليه السلام حيث لم يذكرها بسوء ، و لما رأت كذلك نفس الموقف من النسوة اعترفت بأنها من راودت يوسف عليه السلام عن نفسه و إنه لمن الصادقين ، " فلا مزيد على شهادتهن له بالبراءة و النزاهة و اعترافهن على أنفسهن بأنه لم يتعلق بشيء مما قرفنه به لأنهن خصومه ، و إذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق و هو على الباطل لم يبق لأحد مقال"² . ثم نفت امرأة العزيز تهمة الكذب عنها ، و أنها لم تخن يوسف عليه السلام بأنها تكذب عليه في غيبته لأنها اعترفت صراحة بأنها هي التي راودته عن نفسه و هو بريء مما أتهم به . و هي بقولها هذا "تمدحت بعدم الخيانة على أبلغ وجه ؛ إذ نفت الخيانة في

1 يوسف ، 50-53 .

2 جار الله الزمخشري ، الكشاف ، ج 2 ، ص 479 .

المغيب و هو حائل بينه وبين دفاعه عن نفسه ، و حال المغيب أمكن لمن يريد أن يخون فيها من حاله الحصرة لأن الحاضر قد يتفطن لقصد الخائن فيدفع خيانتة بالحجة¹ .

ثم عادت امرأة العزيز إلى اتهام نفسها بالمرادة و علقتها بنفسها الأمانة بالسوء . و ما حقرت امرأة العزيز أن تعترف و أن تقر على نفسها بالذنب و المرادة - وبكل هذا الإطناب - هو "حرصها على أن يحترمها الرجل المؤمن الذي لم يعبا بفتنتها الجسدية أن يحترمها تقديرا لإيمانها و لصدقها و أمانتها في حقه عند غيبته"² .

و العبرة من هذا المقام كله هي : محاولة يوسف علي السلام إظهار " براءة ساحته مما قرف به و سجن فيه لأن لا يتسلق بها الحاسدون إلى تقييح أمره عنده- الملك- و يجعلوه سلما إلى حظ منزلته - يوسف عليه السلام- لديه ولأن لا يقال ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم و جرم كبير حق به أن يسجن و يعذب ويستكف شره"³ .

و هكذا انفرج بيوسف عليه السلام مقام التهمة و الريبة إلى مقام البراءة .

3. مقام الإنفراج بين يوسف عليه السلام و السيارة :

فبعد أن أسرت السيارة يوسف عليه لسلام بعد إخراجها من الجب اتجت به صوب مصر لتبيعه و بقية الوقف في قوله تعالى: " وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"⁴ .

و اشترى عزيز مصر يوسف عليه السلام من السيارة وأمر امرأته أن تكرمه و تحسن إليه . فأراد العزيز أن "يجعل الإحسان إليه(يوسف عليه السلام) سببا في اجتلاب محبته إياهما و نصحه لهما فينفعها أو يتخذانه ولدا فيبير بهما"⁵ .

1 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج12 ، ص292-293 .
2 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج4 ، ص 1995 .
3 جار الله الزمخشري ، الكشاف ، ج2 ، ص477 .
4 يوسف ، 21 .
5 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج12 ، ص 246 .

و الحاصل أن يوسف عليه السلام قد بلغ مكانا آمنا في مقابل مثنواه في الجب و مع السيارة .
و أما قوله تعالى: " وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ " ¹ . فمعناه ؛ أن
الله جلّ جلاله كما أنجى يوسف عليه السلام من الجب ومن السيارة - بعطف قلب العزيز عليه -
يمكن له في الأرض. و سبب هذا التمكين علمه بتأويل الأحاديث و عبارة المرآئي الحلمية .

4. مقام الإنفراج بين يوسف عليه السلام و النظام الحاكم :

و إنه لما ظهرت براءة يوسف عليه مما قذف به بهتاناً طلب الملك إلى يوسف عليه السلام
الحضور إليه بعد إخراجه من السجن فدارت بينهما هذه المحاوراة والتي هي في قوله تعالى: "
قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) قَالَ اجْعَلْنِي
عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) " ² .

و مما زاد رغبة الملك في اصطفاء يوسف عليه السلام و استخلائه لنفسه هي ما ظهر من
حكيمته و علمه و صبره على تحمل المشاق و حسن خلقه و نزاهته .

و لما دخل يوسف عليه السلام على الملك كلم يوسف الملك كلام الحكيم الأديب ، فأعجب
الملك به لما رأى "حسن منطقته و بلاغة قوله و أصالة رأيه ، فرآه أهلاً لثقته و تقريبه منه" ³ .

فرد الملك على يوسف عليه السلام – بعد سماع ما قاله- قائلاً: " إنك اليوم لدينا مكين أمين " .
و هذه "صيغة تولية جامعة لكل ما يحتاج إليه ولي الأمر من الخصال ، لأن المكانة تقتضي العلم
و القدرة ، إذ بالعلم و القدرة يتمكن من معرفة الخير و القصد إليه ، و بالقدرة يستطيع فعل
الأفعال الصالحة و يترك الشهوات الباطلة . و بالعدالة يوصل الحقوق إلى أهلها . و هذا التنويه
بشأنه و الثناء عليه تعريض بأنه يريد الاستعانة به في أمر مملكته و بأن يقترح عليه ما يرجو
من خير" ⁴ .

فلذلك أجاب يوسف عليه السلام الملك بقوله : " اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم " .
فعلل يوسف عليه السلام طلبه التولية على خزائن الأرض بقوله : "حفيظ عليم" ؛ فصفة الحفظ

1 يوسف ، 21 .

2 يوسف ، 54-55 .

3 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج13 ، ص 7 .

4 محمد الطاهر بن عاشور ، المرجع السابق ، ج13 ، ص 8 .

محققة للإنتمان ، و صفة العلم محققة للمكانة ، لأن الملك مدحه ابتداء فقال: " إنك اليوم لدينا مكين أمين" .

وهذا الفعل الذي صدر عن الملك ، أصلح به ما ألصق بنظامه من ظلم و سجن ليوسف عليه السلام دون جريرة اقترفها .

و بهذا الإستخلاص من الملك ليوسف عليه السلام لنفسه خرج يوسف عليه السلام من السجن لا إلى الحرية فقط بل رفع إلى أن جعل على خزائن أرض مصر كلها ، فأنعّم به من انفراج بعد شدة ومشقة .

و بعد عرضنا لمقامات الإنفراج التي كان يوسف عليه السلام طرفا فيها ، ننتقل إلى مقامات الإنفراج التي كانت بين شخصيات قصة يوسف عليه السلام ، حيث لم يكن يوسف عيه السلام طرفا فيها ، و هي :

5. مقامات الإنفراج بين يعقوب عليه السلام و أبنائه :

و بعد أن عفا يوسف عليه السلام عن إخوته الذين أخطؤوا في حقه طمعوا في صفح أبيهم عنهم - كذلك - ، ليهنؤوا بالتوبة و يفتحوا صفحة جديدة نقية مع الذين آذوهم . لهذا بادروا أباهم- بعد رحلة الميرة الثالثة- فقالوا: " يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا دُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ"¹ ، فرد أبوهم عليهم قائلا: " قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ"² .

فاعترف إخوة يوسف عليه السلام بذنبهم أمام يعقوب عليه السلام راجين منه أن يستغفر لهم الله ، فوعدهم - مسوفا - بأنه سينجز لهم مطلوبهم .

ونستشعر في هذا التسوية بالإستغفار أنه مازال في " قلب يعقوب شيء من بنيه و أنه لم يصف لهم بعد ، و إن كان يعدهم باستغفار الله بعد أن يصفو و يسكن و يستريح"³ .

1 يوسف ، 97 .

2 يوسف، 98 .

3 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج4 ، ص 2028.

و ذهبت طائفة من المفسرين إلى تأويل قوله يعقوب عليه السلام السابق : - سوف أستغفر لكم ربي- بأنه عليه السلام إنما أجل الإستغفار لأبنائه قصد تحيّن وقت يغلب عليه أنه وقت إجابة للدعاء .

و ذيل يعقوب عليه السلام كلامه بقوله : " إنه هو الغفور الرحيم " ؛ فأتى بصفتين لله عز وجل هما سبب مغفرة الذنوب و الخطايا .

6. مقام الإنفراج بين امرأة العزيز و النسوة :

فلما بلغ الصراع والمكر بين النسوة و امرأة العزيز مبلغه دعتهن إلى بيتها و أعدت لهن مجلسا و طلبت من يوسف عليه السلام أن يخرج عليهن " فلما رأيته أكبرنه و قطعن أيديهن و قلن حاش لله ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم"¹ .

و عند معاينة النسوة ليوسف عليه السلام أعظم جماله و حسنه و دهشن و رحن يجرحن أيديهن بالسكاكين و هن غير شاعرات بالألم لعظم ما رأين ، حتى إنهن أخرجنه من البشرية و أدخلنه في زمرة الملائكة .

و أتت النسوة بهذا التشبيه- تشبيه يوسف بالملائكة- على وجه الخصوص لأنه " ركز في الطباع من نسبة كل معنى فائق في الحسن و العفة إلى الملائكة"² .

و دبرت امرأة العزيز هذا اللقاء بين يوسف عليه السلام و النسوة اللائعات لها في حبها إياه لتريهن ما يعذرنها بسببه فيمسكن عن غيبتها .

فلما رأت امرأة العزيز من النسوة البهر و الدهش و الإعجاب الشديد بيوسف عليه السلام أيقنت أنهن قد أعذرنها . و لكي يرضينها رحن يتنصحن ليوسف عليه السلام أن يطيع سيده و يجيبها إلى طلبها محذرات إياه من انتقامها منه .

و بهذا المقام الإنفراجي ننتهي من عرض هذا النوع من المقامات الإنفراجية و التي كانت بين شخصيات قصة يوسف عليه السلام ، لنباشر بعده عرض نوع آخر من المقامات الإنفراجية وهي:

1 يوسف ، 34 .

2 إبراهيم بن عمر البقاعي ، نظم الدرر ، ج3 ، ص 35 .

ثانيا : مقامات الإنفراج الداخلي للشخصيات :

1. مقامات الإنفراج الداخلي ليوسف عليه السلام :

و هذا المقام الإنفراجي كان نهاية لنوعين مختلفين من الصراع ، الأول: نهاية صراع يوسف عليه السلام مع النسوة وامرأة العزيز- و هذا ما عرضناه سالفًا في موضعه- . و الثاني: نهاية الصراع الداخلي ليوسف عليه السلام لأنه لما رأى إصرار النسوة الغائلات على الإيقاع به سارع إلى دعاء الله بأن يصرف عنه كيدهن فأنتت الإستجابة سريعة في قوله تعالى: " فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"¹ .

و لما صرف الله تعالى كيد الكائدات عن يوسف عليه السلام نجا من الوقوع في الفاحشة و ارتاحت نفسه من الخوف من مباشرته لهن و سكنت جوانحه باستجابة الله لدعائه .

و نفس الشيء كان بالنسبة للمقام الإنفراجي الداخلي الثاني و الذي كان نهاية لصراع يوسف عليه السلام مع إخوته و نهاية - كذلك - للصراع النفسي الذي كظمه و لم يبيده حين افترى عليه إخوته لما قالوا : " إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل " - يعنون يوسف عليه السلام- لكن ذلك الغيظ و الحنق سرعان ما خمد و سكنا ، و دليل ذلك أن يوسف عليه السلام سامح إخوته و عفا عنهم على كل ما بدر منهم قديما و حديثا فقال لهم : " لا تُتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ"² .

2. مقام الإنفراج الداخلي ليعقوب عليه السلام :

و إنه لما تعرف الإخوة على يوسف عليه السلام حملهم قميصه و قال لهم أن يلقوه على وجه أبيه ليرجع إليه بصره ، و ذلك ما كان في قوله تعالى: " لَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا"³ .

1 يوسف ، 34 .

2 يوسف، 92 .

3 يوسف، 96 .

وقد ردّ الله تعالى بصر يعقوب " كرامة له و ليوسف عليهما السلام ، و هي (واقعة) خارقة للعادة "1 حولت حياة يعقوب عليه السلام من الحزن و الكمد إلى السعادة و الإنشراح لأن بصره رد عليه و لأن لقاءه بيوسف عليه السلام قد اقترب .

و ما زاد من فرحة يعقوب عليه السلام شوقه إلى لقاء يوسف عليه السلام أنه أخبر بأن يوسف عليه السلام هو عزيز مصر ذاته بعد أن مكّن الله له و جعله ملك مصر على خزائن الأرض .

و ذكر في بعض التفاسير أن يعقوب عليه السلام لمّا التقى يوسف عليه السلام لأول مرة بعد الإفتراق قال له : "السلام عليك يا ذاهب الأحزان عني" 2 .

و بعد عرض مقام الإنفراج الداخلي لهاتين الشخصيتين الأساسيتين في قصة يوسف عليه السلام نستعرض تباعا نوعا آخر من مقامات الإنفراج و هو :

ثالثا : مقام الإنفراج بين الإنسان والطبيعة :

و يقع هذا المقام في قوله تعالى: " قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ(47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ(48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ(49)" 3 .

فكما خلقت رؤيا الملك فزعا و قلقا عميقا للملك و لمن حوله خلق تعبيرها انفراجا و ارتياحا للجميع ، لأن يوسف عليه السلام "عبر الرؤيا بجميع مادلت عليه ؛ فالبقرات لسنين الزراعة لأن البقرة تتخذ للإثمار، و السمن زمر للخصب ، و العجف رمز القحط ، و السنبلات رمز للأقوات ، فالسنبلات الخضر رمز لطعام ينتفع به ، و كونها سبع رمز الإنتفاع به لسبع سنين ، فكل سنبله رمز لطعام سنة . فذلك يقتاتونه في تلك السنين جديدا .

و السنبلات اليابسات رمز لما يدخر ، و كونها سبعا رمز لإدخارها في سبع سنين لأن البقرات العجاف أكلت البقرات السمان . و تأويل ذلك : أن سني الجذب أتت على ما أثمرته سنو الخصب" 4 .

1 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير ، ج13 ، ص 53 .

2 أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، جامع البيان ، ج13 ، ص350 .

3 يوسف ، 47-49 .

4 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج 12 ، ص 286 .

و قد مزج يوسف عليه السلام تأويله لرؤيا الملك بإرشاد جليل و خطة حكيمة . فأشار عليهم أن يتركوا ما حصدوا في سنبله إلا ما أرادوا أكله . و هي "مشورة أشار بها نبي الله صلى الله عليه و سلم على قومه و رأي رآه لهم صلاحاً"¹ .

و لم يكتف يوسف عليهم السلام بإطلاعهم بما يحدث في السنوات الأربع عشر بل زاد أن أخبرهم بما سيحدث في العام الخامس عشر و الذي لم تأت رؤيا الملك على ذكره و لا حتى الإشارة إليه . و خير هذا العام في قوله تعالى: " ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ"² .

و الإخبار بحقيقة هذا العام هو بمثابة بشارة و إدخال المسرة على النفوس بعد سماعها الكلام المؤيس ، لأن ذكر السنوات القحط و الجذب يبعث الخوف و التقرب في النفس .

و في تأويل يوسف عليه السلام لرؤيا الملك من التخطيط لمستقبل مصر ما يجعل الأبصار ترنوا إليه و يستجاب لطلبه في أي وقت .

و" الملاحظ في هذه القصة أن الإنتصار على الطبيعة – أو بمعنى أصح- الإنتصار في الحياة إنما يتحقق بأمرين : العلم و الأمانة . فبهذين الأمرين استأهل يوسف أن يكون ربان هذه السفينة حين تلاطمت بها الأمواج حين قال: "اجعلني على خزائن الأرض إني عليم حفيف"³ .

و من خلال عرضنا لمقامات الإنفراج و استقصائنا لحيثياتها لا حظنا اشتراك عدة مقامات للصراع في مقام واحد للإنفراج ، بينما رأينا في مواضع أخرى أن لكل مقام للصراع مقام للإنفراج يقابله .

1 ابن جرير الطبري ، جامع البيان ، ج 13 ، ص 190 .

2 يوسف ، 49 .

3 عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآني ، ص 237 .

4. مقام العظة :

و هي مجموعة الدروس المستخلصة من القصص القرآني و التي تصلح كعبرة يتمثلها الناس، لأن العبرة هي الهدف الأساسي من إنزال القرآن الكريم في شكل قصص و في هذا المقام قال تعالى: " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ " 1 .

ففي قصة يوسف عليه السلام عبر مختلفة يستطيع أي عاقل أن يقف عليها و يستخلص منها- القصة- عظة أو عظات تشاكل حال المستقصى عنها مهما كانت حاله ، و فيها قال تعالى: " لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُتَوَكِّلِينَ " 2 . أي : أن في هذه القصة عبر و عظات لمن أرادها و استقصى عنها . و نحن في هذا الإطار نحاول أن نستخلص من قصة يوسف عليه السلام مقاما عاما و مقامات أخرى جزئية .

أ. مقام العظة العام :

و لعل أدل عبارة عن المقام العام للعظة هي قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: "إنه من يتق و يصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين" 3 .

و قد رشحنا قول يوسف عليه السلام السابق لأن يكون المقام العام للعظة لأن العبرة فيه تنسحب على كل شخصيات القصة تقريبا .

فبالرغم من أن العبارة القرآنية السابقة جاءت في سياق محاورة بين يوسف عليه السلام و إخوته حين كشف لهم عن شخصيته الحقيقية إلا أنها جاءت بصفة العموم خالية من كل تحديد لتكون قانونا عاما يحكم كل البشرية .

و بناء على حكم يوسف عليه السلام السابق انقسمت شخصيات قصتنا هذه إلى قسمين ، فالقسم الأول نجد فيه من اتقى و صبر، فكان من منّ الله عليهم فجعلهم من المحسنين.

و القسم الثاني نجد فيه من لم يتق و من لم يصبر، فانساق وراء نزواته الشريرة ، فحرم نعم الله و كان من المقبوحين .

1 يوسف ، 111 .

2 يوسف ، 7 .

3 يوسف ، 90 .

ففي القسم الأول نجد : يوسف عليه السلام و يعقوب عليه السلام و بنيامين شقيق يوسف عليه السلام .

و في القسم الثاني نجد : إخوة يوسف عليه السلام و امرأة العزيز، والعزيز- الذي يمثل النظام الحاكم - ، و السيارة التي أسرت يوسف عليه السلام .

و إنما ساق الله تعالى لنا الموعظة بشخصيات هذه القصة لكي نقندي بالخيرة منها و نمقت الشريرة منها و نبتعد بحالنا أن يماثل حالها .

هذا عن مقام العظة العام لقصة يوسف عليه السلام ، و سنأتي في اللاحق على ذكر بعض مقامات الوعظ الجزئية لهذه القصة .

ب. المقامات الوعظية الجزئية لقصة يوسف عليه السلام :

و نحاول هنا أن نقف على بعض العظات الماثرة في ثنايا قصة يوسف عليه السلام و التي جاء بعضها صريحا و الآخر يستشف من سياقات القصة ، و منها :

أن سورة يوسف عليه السلام هي تسلية لكل لمكروب و محزون . لذلك قال فيها "عطاء رحمه الله : لا يسمع سورة يوسف محزون إلا إستراح لها"¹ ، لأنها نزلت على محمد صلى الله عليه و سلم في مكة في عام الحزن ، حيث كان - محمد صلى الله عليه - في مرحلة عصبية من الدعوة هو و الفئة المؤمنة المستضعفة معه - وقد سبق ذكر هذا بالتفصيل في ذكر المقام العام لسورة يوسف- . و جاءت هذه العظة في قوله تعالى: " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ"² . ففقد أشير إلى هذه العظة ضمنا في هذه الآية بينما صرح بها في قوله تعالى: " حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا فَجَنَّبِي مَنْ تَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ"³ . فدللت هذه الآية الكريمة على أن مصير كل مؤمن محسن صابر هو النصر و التمكين من عند الله ، وأن الذلّ و الهوان للمجرمين الظالمين .

1 عمر الدمشقي ، اللباب في علوم الكتاب ، ج17 ، ص 07 .

2 يوسف ، 3 .

3 يوسف ، 110 .

و ثاني هذه المقامات هو : أن عاقبة المكر و الكيد تبور؛ و ذلك بانجلاء حقيقته فيظهر للعيان بعدما كان تدبيراً مستورياً .

فالمثال الأول لهذه العظة هو ما كاده إخوة يوسف عليه السلام له و ذلك لما أبعده عن أبيهم ليخلو لهم وجهه و يقبل عليهم بمحبته فتأمروا قائلين : " اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ(9) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْفَوْهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ(10)"¹.

و لما ألقوه في الجب قالوا: " يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَنَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّبَابُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ(16) وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ(18)"² .

لكن كيدهم بيوسف عليه السلام انكشف و ظهرت حقيقة مكرهم به عارية أمام يعقوب عليه السلام ، و هي في قوله تعالى: " فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(96) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ(97)"³ .

و المثال الثاني على عاقبة الكيد و المكر هو؛ كيد امرأة العزيز بيوسف عليه السلام . و هو في قوله تعالى : " وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ(24) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(25)"⁴ .

و قد ظهر ما كادته ليوسف عليه السلام و بانته الحقيقة ساطعة و هي في قوله جلّ جلاله: " فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ فُدًّا مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ(28) يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ(29)"⁵ .

1 يوسف ، 9-10 .

2 يوسف ، 16-18 .

3 يوسف ، 96-97 .

4 يوسف ، 23-25 .

5 يوسف ، 28-29 .

كما ظهرت حقيقة هذه الكائنة الغائلة في قوله تعالى: " قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ فَلَنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ"¹ .

ولقد وقفنا سابقا - في مقام الإنفراج- على مدى الشعور بالخزي و الخجالة الذي يصاحب صاحب الكيد عند انكشاف أمره .

و ثالث المقامات الإعتبارية هو : و جوب الدفاع عن النفس و إزالة التهم . و نجد هذه العبرة في ثلاثة مواقف جميعا صدرت عن يوسف عليه السلام .

و أول هذه المقامات عندما اتهمته امرأة العزيز أمام زوجها و الشاهد بأنه أراد بها سوءا ، فرد يوسف عليه السلام مدافعا عن براءته مما قذف بهتانا و زورا فقال: " قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَن نَّفْسِي"² . و لما دافع يوسف عن نفسه لزم على العزيز أن يتحرى الحقيقة ، فوقف عليها جلية حيث وجد أن زوجته هي التي أرادت بيوسف سوءا و ليس هو .

و الموقف الثاني: عندما أوّل يوسف عليه السلام رؤيا صاحبيه في السجن طلب من الذي نجا أن يذكر قضيته عند الملك و ينقل إليه مظلمته - بأنه سجن ظلما و عدوانا - ، لكن الذي نجا نسي ما حملّه يوسف عليه السلام به . و العبرة هنا أن يوسف عليه السلام سارع إلى إظهار براءته لما سمحت له الفرصة و قال: " لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ"³ .

و الموقف الثالث عندما أوّل يوسف عليه السلام رؤيا الملك فطلب إليه الحضور لكن يوسف رفض طلبه وردّ رسول الملك محملا إياه استفسارا للملك فحواه : " مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ"⁴ .

و إنما تأنى يوسف عليه السلام في إجابة الملك و " قدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به و سجن فيه لأن لا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده - الملك - و يجعلوه سلما إلى حظ منزلته لديه ، و لأن لا يقال ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم و جرم كبير حق أن

1 يوسف ، 51 .

2 يوسف ، 26 .

3 يوسف ، 42 .

4 يوسف ، 50 .

يسجن و يعذب و يستكف شره . و فيه دليل على أن الإجتهد في نفي التهم واجب و جوب اتقاء الوقوف في مواقفها"¹ .

و رابع هذه المقامات الإعتبارية هو : هو مقابلة الإساءة بالإحسان .

فقد قابل يوسف عليه السلام إساءة النظام الحاكم له – عندما سجن دون وجه حق- بالإحسان إليهم ، و ذلك لما عيّر رؤيا الملك و هو في السجن . و في موقف يوسف عليه السلام هذا قال "رسول الله صلى الله عليه و سلم : " لقد عجبت من يوسف و كرمه و صبره و الله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف و السمان و لو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشتري أن يخرجوني"² .

و من مثال هذا المقام نجده في قول يوسف عليه السلام عندما طلب من الملك أن يسأل النسوة اللاتي قطعن أيديهن ما بالهن ؟ و لم يأت يوسف عليه السلام على ذكر امرأة العزيز ، - و هي التي كانت قد أعظمت له الإساءة - و اكتفى بذكر النسوة فقط . فلم يشأ أن يعرضها للسؤال و ما ينجر عنه من إحراج . فلما علمت بهذا الصنيع من يوسف عليه السلام قابلته بإحسان آخر حين أقرت بأنها من راودته عن نفسه و شهدت ببراءته .

و كما نجد هذا المقام- مقابلة الإساءة بالإحسان- كذلك في موقف يوسف عليه السلام مع إخوته لما أتوه للميرة لأول مرة فأكرمهم و أجزل لهم العطاء وردّ إليهم بضاعتهم ، و هذا ما وقفنا عليه في قوله تعالى : "وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ"³ .

بل عاملهم يوسف عليه السلام بأكثر من هذا الإحسان حين صفح عنهم و هم الذين أسأؤوا إليه إساءة كبيرة عندما أبعده عن أبيه و أخيه و عرضوه للهلاك بمواراته في غيابة الجب .

و لكن هذه هي شيم الأنبياء الذين يدعون إلى الله بكل أحوالهم فيكونوا قدوة واقعية للإحتذاء و للإعتبار .

و خامس هذه المقامات الوعظية هي : الصبر و عدم القنوط و اليأس و اللجوء إلى الله لتفريج الكربات .

1 جار الله الزمخشري ، الكشاف ، ج1 ، ص 477 .

2 جار الله الزمخشري ، الكشاف ، ج1 ، ص 478 .

3 يوسف ، 59 .

و لعل أدلّ المواقف على هذا المقام في قصة سيدنا يوسف عليه السلام هي؛ مواقف يعقوب عليه السلام ، ابتداء من تغريب الإخوة ليوسف عليه السلام و زعمهم أن الذئب قد أكله و جاؤوا على قميصه بدم كذب ، فلما سمع مقالتهم هذا قال: " فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ"¹ . فصبر يعقوب عليه السلام صبيرا جميلا لا جزع فيه و لا شكوى . و انتهت بتضييع الإخوة لأخيهم الثاني - شقيق يوسف عليه السلام- و قالوا لأبيهم بأنه قد سرق ، فلما سمع مقالتهم الثانية قال : " فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ"² . فلم يصدق يعقوب عليه السلام أبنائه بما أخبروه من سرقة ابنه و أن العزيز قد أخذه عنده أسيرا بسرقة لكنه صبر و احتسب دون يأس أو جزع . هنالك دعا الله دعوة المضطرين أن يجمع شمله بأبنائه أجمعين . و هذا تفاؤل منه عليه السلام رغم صعوبة الموقف و بعد المكان . و من تفاؤله هذا ندب أبنائه قائلا: " يَا بَنِيَّ ادْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ"³ .

فأمر يعقوب أبنائه أن يجتهدوا في البحث عن إختهم و لا ييأسوا و لا يقنطوا من رحمة الله و فرجه لأن المؤمنين " الموصولة قلوبهم بالله الندية أرواحهم بروحه الشاعرون بنفحاته المحيية الرخيّة فإنهم لا ييأسون من روح الله و لو أحاط بهم الكرب و اشتد بهم الضيق"⁴ .

ولما عثر على يوسف عليه السلام ردّ يعقوب عليه السلام على المشنعين عليه في أمر يوسف عليه السلام فقال : " ألم أقل لكم أنني أعلم من الله ما لا تعلمون"⁵ .

و المقام الإعتباري السادس هو : وجوب النهوض بالمهمة الموكلة و القيام بواجباتها مهما كانت الظروف و العوائق .

و نجد هذا المقام في قيام يوسف عليه السلام بواجب الدعوة إلى الله و هو في السجن ، فلم تمنعه ظروفه النفسية الصعبة و لا ما يشعر به من إهانة و صغار و ظلم داخل السجن من أدائه لما كلف به من التبليغ عن الله بتعليم من معه في السجن عقيدة التوحيد و نبذ الشرك و الشركاء . و يقع هذا المقام في قوله جلّ ثناؤه: " وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِينَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ

1 يوسف ، 18 .

2 يوسف ، 83 .

3 يوسف ، 87 .

4 سيد قطب ، في ظلال القرآن ، م4 ، ص 2026 .

5 يوسف ، 96 .

مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(37) وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ(38) يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(40)"¹ .

و قد شغل هذا المقام الوعظي مساحة لا بأس بها من قصة يوسف عليه السلام و هذا ما يدل على أهمية هذا المقام و هو الدعوة إلى الله .

و يوسف عليه السلام بموقفه هذا يضرب لنا عبرة لأنه استثمر فرصة إقبال صاحبي السجن و اطمئنانهما إليه و ترفيها أن يؤول لهما ما رأياه . و قد أرجع يوسف تأويله للرؤى إلى تعليم الله له " لأن وعده بتأويل الرؤيا في وقت قريب يثير عجب السائلين عن القوة و عن الطريقة التي حصل بها ، فيجيب بأن ذلك ما علمه الله تخلصا إلى دعوتهما - صاحبي السجن- إلى الإيمان بالله واحد . و كان القبط مشركين يدينون بتعدد الآلهة"² .

و موقف يوسف هذا مع صاحبي السجن يعد " من أفانين الخطابة ،(ففيه) يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعدة و هي فرصة تأثر السامع و انفعاله و ظهور شواهد صدق الواعظ في موعدته"³ .

و العظة السابعة هي : عدم الحكم على الأشياء من مظهرها . و هذا ما شاهدناه من خلال عرضنا لقصة يوسف عليه السلام . " فكل أحواله لطف في عنف و نعمة في طي بلية و نعمة و يسر في عسر و رجاء في يأس و خلاص في ولات مناص . و سائق القدر ربما يسوقه بلطف . و القهر و العنف أحمد عاقبة و أقبل تبعة " ⁴ .

و نحن في عرضنا لهذا المقام - مقام العظة - حاولنا استقصاء بعض الدروس من قصة يوسف عليه السلام و التي يبقى الكثير منها لا يسعنا حصره في هذا المقام لأن قصص القرآن الكريم كله عبر و هي تتولد و تتنوع بتجدد استقصائها و بإمعان البحث عنها .

1 يوسف ، 36-40 .

2 محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج 12 ، ص 272 .

3 محمد الطاهر بن عاشور ، المرجع السابق ، ج 13 ، ص 49 .

4 ابراهيم بن عمر البقاعي ، نظم الدرر ، ج 3 ، ص 38 .

و بعد عرضنا لمقامات القص في سورة يوسف عليه السلام انتهينا إلى أن قصة يوسف عليه السلام تتميز بمتانة الحبكة و تداخله و تماسكه بشكل معجز ابتداء من مقام الإستهلال و ما فيه من تقدمة و تمهيد للقصة و ما عقبه من وضع ابتدائي قبل بداية تصارع شخصيات القصة . مرورا بمقام الصراع- و هو أطول المقامات- و الذي وقفنا فيه على صراعات متنوعة أسهمت كلها في دفع القصة إلى التآزم لكن سرعان ما انفرجت الأزمان بأصحابها في مقام الإنفراج و الحل .

كما استقصينا في الأخير عن بعض الدروس و العظات و التي استخلصناها من قصة يوسف عليه السلام .

و قصة يوسف عليه السلام ذات وحدة عضوية متداخلة فتداخلت معها المقامات ، فتنوعت حسب تطور الأحداث التي شكلت بجميع أطوارها حبكة هذه القصة المعجزة .

و هذه القصة فريدة من نوعها في القرآن الكريم حيث لا توجد فيه قصة مكتملة و بهذا الإطناب سواها بالإضافة إلى أن جميع أحداثها - قصة يوسف - جاءت في سورة واحدة لذلك سميت السورة التي جاءت فيها قصة يوسف عليه السلام بسورة : "يوسف" .

كما وقفنا على مدى مطابقة أساليب هذه القصة لمقتضى حال المخاطبين . فكانت - الأساليب - أصدق و أدق مصور للأحداث و انعكاساتها على شخصيات القصة و ما نتج عنها من ردود أفعال و أحاسيس و خلجات و مواقف كل حسب ما يلائمه .

الفصل الثالث

دور علوم البلاغة في تجلية
مقامات القص في سورة يوسف

تمهيد :

فبعدما استدللنا في الفصل الثاني بحبكة القصة و بمقاماتها المتنوعة على بلاغة القصة ، نستدل في هذا الفصل -الثالث- بعلوم البلاغة على إحكام الحبكة في قصة سيدنا يوسف-عليه السلام- ومدى مطابقة مقامتها لمقتضيات أحوال المخاطبين فيها و بها .

و نحن في هذا الفصل نحاول أن نضرب أمثلة من سورة يوسف عليه السلام لنستدل بها على مطابقة أحوال القصة لمقتضيات الأحوال ، أي أننا لا نريد حصر جميع الظواهر البلاغية ، وتحديدتها في سورة يوسف بل سنكتفي بالأمثلة التي تحقق غرضنا وهو الاستدلال دون الولوج -أيضا- في تفصيلات و جزئيات و دقائق علوم البلاغة لأن مقام بحثنا هذا لا يسمح بذلك .

المبحث الأول : علم المعاني .

1. تعريف علم المعاني :

فالكلام البليغ كما رأينا في الفصل الأول هو الكلام الذي يراعي فيه منشؤه أحوال المخاطبين فيجعل لكل مقام مقالا ، و قد " اتفق رجال البيان على تسمية العلم الذي تعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق اقتضاء الحال: "باسم علم المعاني" ¹ .

و يعرف السكاكي علم المعاني : فيقول: " أعلم أن علم المعاني هو تتبع تراكيب الكلام في الإفادة ، و ما يتصل بها من الاستحسان و غيره ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره ، و أعني بتراكيب الكلام : التراكيب الصادرة عن له فضل تمييز و معرفة و هو تركيب البلغاء لا الصادرة عن سواهم لنزولها في صناعة البلاغة منزلة أصوات حيوانات تصدر عن محالها بحسب ما اتفق " ² .

2. أبواب علم المعاني :

و لعلم المعاني عدة أبواب ترسم حدوده ، و توضح دوره الذي هو معرفة مدى مطابقة الكلام لمقتضى الحال . و أول هذه الأبواب هو :

1أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 35 .
2أبو يعقوب السكاكي ، مفتاح العلوم ، ص 247-248 .

أ. الخبر :

1. تعريف الخبر :

الخبر هو " كلام يحتمل الصدق و الكذب لذاته بقطع النظر عن خصوص قائله ، و يتحقق مدلوله في الواقع بدون النطق به" ¹ . وللخبر غرضين أساسيين هما :

2. أغراض الخبر :

أ. فائدة الخبر :

فائدة الخبر هي : " إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة إذا كان جاهلا له" ² .

و من أمثلة هذا الغرض في سورة يوسف عليه السلام نورد قوله تعالى: " إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنني رأيت أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر رأيتهم لي ساجدين" ³ .

فساق الله تعالى في هذه الآية خبرا لمحمد صلى الله عليه و سلم يتمثل في رؤيا رآها يوسف عليه السلام ، و قلنا أن غرض الخبر في هذه الآية هو فائدة الخبر لأن محمدا صلى الله عليه و سلم لم يطلع من قبل على رؤيا يوسف عليه السلام و لم يعلمها من أي طريق ، و ما يؤيد هذا قوله تعالى في الآية التي سبقتها : " و إن كنت من قبله لمن الغافلين" ⁴ .

هذا عن المخاطب غير المباشر، أما عن المخاطب المباشر و هو أبو يوسف عليهما السلام فنفس الغرض يفيد هذا الخبر ، لأن يعقوب عليه السلام كان جاهلا برؤيا يوسف عليه السلام لأنها رؤيا خاصة بالأحلام .

و قد طبقت هذه الآية عدة مقتضيات للأحوال منها : أنها حملت خبرا و أبلغت به صنفين من المخاطبين- مباشر وغير مباشر- و ثانيا : أنها ناسبت مقام الإبتداء في هذه القصة ، و ثالثا : أنها أثارَت في نفس المخاطب أسئلة و استفسارات عن معنى ما رأى يوسف عليه السلام .

ب. لازم فائدة الخبر :

لازم الفائدة هو: " إفادة المخاطب أن المتكلم عالم أيضا بأنه يعلم الخبر" ⁵ .

1 عبد اللطيف شريف ، زبير دراقى ، الإحاطة في علوم البلاغة ، ديوان المطبوعات الجامعية دط ، 2004 ، ص 20 .

2 السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 46 .

3 يوسف ، 04 .

4 يوسف ، 03 .

5 السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 35 .

و نسوق لهذا الغرض مثالا من سورة يوسف و هو في قوله جلّ جلاله : " إذ قالوا ليوسف و أخوه أحب إلى أبينا منا و نحن عصبية إن أبانا لفي ضلال مبين " ¹.

و غرض الخبر في هذه الآية هو لازمة الفائدة لأن الآية السابقة جاءت على شكل محاوراة بين إخوة يوسف عليه السلام و هم يعلمون جميعا بأن حب يعقوب ليوسف و أخيه أمر ثابت ، لذلك أكدوا مقالتهم بلام الإبتداء التي أرادوا بها تأكيد لازم فائدة الخبر المساق .

و طابق هذا الخبر في الآية السابقة حال المخاطب به لأمرين :

الأول : أن الإخوة " لم يكونوا سواء في الحسد لهما – يوسف و أخيه- و الغيرة من تفضيل الأب إياهما على بقيتهم ، فأراد بعضهم إقناع بعض بذلك ليتمالؤوا على الكيد ليوسف عليه السلام و أخيه" ² .

و الثاني : أنهم كانوا عصبية جماعة أشداء يستطيعون فعل أي شيء لمعالجة هذا الواقع ، و هو حب يعقوب عليه السلام لإبنيه . لذلك قرروا مباشرة بعد هذا الخبر قتل يوسف عليه السلام.

3. مقامات التوكيد " أضرب الخبر " :

فلما كان الغرض من الكلام هو الإخبار كان من حقّه أن يكون كفافا بقدر الحاجة لا زائدا عنها فيكون عبثا و لا ناقصا فيخل بالغرض الذي سيق من أجله .

لذلك تختلف أضرب الخبر أو مقامات التوكيد باختلاف مقامات المخاطبين. وهي ثلاث مقامات : مقام خالي الذهن و مقام المتردد و مقام المنكر .

و الفرق بين هذه المقامات في عدد المؤكدات التي تساق مع الخبر ، و للخبر مؤكدات كثيرة أشهرها : إن ، أن ، و لا الإبتدائية ، و أحرف التنبيه ، و أما الشرطية ، و إنما ، و إسمية الجملة، و ضمير الفصل .

و هذه المقامات بالتفصيل هي:

أ. مقام خالي الذهن (الضرب الإبتدائي) :

1يوسف، 08

2محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج12 ، ص 220

في هذا المقام يكون ذهن المخاطب خاليا من الحكم الذي ساقه المتكلم ، فهو-المخاطب- غير متردد فيه و لا منكر له ، لذلك يلقي إليه هذا الضرب من الخبر خاليا من المؤكدات ، و يسمى هذا الضرب " ابتدائيا " .

و مثاله من سورة يوسف قوله تعالى: " و كذلك يجتبيك ربك و يعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك و على آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم و إسحاق " ¹ .

فهذا خطاب من يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام يخبره و يبشره بأمر لا يعرفها يوسف عليه السلام ، لكن يعقوب عليه السلام علمها إما استنتاجا من رؤيا يوسف عليه السلام ، و إما بوحي من العزيز العليم ، فيوسف عليه السلام لم يسبق له أن علم الأشياء التي أطلعها يعقوب عليه السلام عليها، لذلك أورد الأب كلامه عار من أي مؤكد لأن مقام يوسف عليه السلام هنا مقام خالي الذهن فلم يتردد و لم ينكر الحكم الذي تضمنه الخبر. فطابق كلام يعقوب عليه السلام حال يوسف عليه السلام فكان كلاما بليغا .

ب. مقام المتردد (الضرب الطلبي) :

و هو المتردد في ثبوت الحكم أو عدمه ، " و يجب تأكيد الحكم له خصوصا إذا كان عنده ظن بخلافه ، كما إذا كان الحكم بأمر يبعد في الظن مثله لأن العادة جرت بغيره" ² . و يسمى هذا الضرب بالطلبي .

و مثال هذا المقام في قوله جل شأنه : " و لمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك " ³ . فلما رأى يوسف عليه السلام أن أخاه متردد و شك في معرفته- لطول العهد به و لتغير هيأته و شكله- أورد كلامه معززا بمؤكدين هما "إن" و الضمير المنفصل "أنا" فكفياه في إقناع شقيقه المتردد بأنه هو يوسف عليه السلام . فطابق كلام يوسف عليه السلام حال شقيقه الشاك والمتردد .

ج. مقام المنكر (الضرب الإنكاري) :

هو المنكر للحكم " و هذا يجب تأكيد الحكم له بقدر إنكاره قوة و ضعفا " ⁴ ، و يسمى هذا الضرب بالإنكاري.

1 يوسف، 06

2 عبد المتعال الصعيدي ، البلاغة العالية ، علم المعاني ، كتاب الأدب ، المطبعة النموذجية ، مصر ، ط2 ، 1411هـ-1991م ، ص59.

3 يوسف، 69

4 عبد المتعال الصعيدي ، البلاغة العالية ، ص4

و جاء هذا المقام في قوله تعالى : " و لمّا فصلت العير قال أبوهم إنني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون"¹ .

فلما أحس يعقوب عليه السلام أن أبنائه ينكرون عليه وجدانه لرائحة يوسف عليه السلام ، بادر إلى تأكيد مقالته بمؤكدين هما "إن" و "اللام"(لأجد) و ما دل على أن الأبناء كانت حالهم الإنكار قول يعقوب عليه السلام. "لو لا أن تفندون" ، أي أنكم ستنكرون علي ما قلت ، و ذلك ما كان من أبنائه حين ردوا عليه قائلين: " تالله إنك لفي ضلالك القديم"². فهم بمقالته هذه أنكروا على أبيهم مقالته . ثم أكدوا حكم الإنكار بثلاث مؤكدات هي : " القسم : (تالله) و " إن " و "اللام" ، وقد تمادى أبناء يعقوب عليه السلام في إنكارهم على أبيهم لمّا ساقوا هذا الكم الكبير من المؤكدات ، و أكدوا إنكارهم على أبيهم لأنهم كانوا موقنين بهلاك يوسف عليه السلام فأرادوا أن يقنعوا أباهم بحكمهم هذا و ينكروا ما قاله من وجدانه لريح يوسف عليه السلام.

و قد يخرج الخبر عن هذه الأغراض ليفيد أغراضا أخرى تستنتج من السياق و من هذه الأغراض: الدعاء .

و هو في قوله تعالى : " قال ربي السجن أحب إلي مما يدعونني إليه و إلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن و أكن من الجاهلين"³ .

فجملة " و إلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن و أكن من الجاهلين " حملت معنى الدعاء ، فأردفت هذه الآية تباعا بقوله تعالى : " فاستجاب له ربه " ، فكيف تذكر الإستجابة ما لم يتقدمها الدعاء؟! ، و قد نحا يوسف عليه السلام هذا المنحى في كلامه " ملازمة للأدب مع ربه بالتبرء من الحول و القوة و الخشية من تقلب القلب و من الفتنة بالميل إلى الحرام"⁴ ؛ فرأى يوسف عليه السلام أن دعاءه بصفة الخبر أبلغ من الدعاء الصريح .

و كما يفيد الخبر: الأمر، و مثاله في قوله تعالى: " تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون"⁵ .

فخاطب يوسف عليه السلام رسول الملك بقوله : " تزرعون" ، أي ازرعوا ، فهذا خبر بمعنى الأمر، ليخبرهم عن عملهم في السبع السنين الأولى ، و ما دل عليه أنه يحمل معنى الأمر قوله_ يوسف_ تباعا: "فذرؤه" و هو أمر صريح ، و قد خاطبهم يوسف عليه السلام بصيغة الخبر

1يوسف ،94

2يوسف ،95

3يوسف ،33

4محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج12 ، ص266

5يوسف ،47

لا بالأمر لأنه يعلم من حالهم أنهم يزرعون دائماً فالزراعة عادتهم فلا يحتاجون إلى أمر من يوسف عليه السلام حتى يباشرونها .

ولمّا لم تكن عادتهم أن يتركوا حصادهم في سنبله أمرهم يوسف عليه السلام بأن يفعلوا ذلك.

ب. الإنشاء : وهو الباب الثاني من أبواب المعاني .

تعريف الإنشاء :

الإنشاء : كلام لا يحتمل الصدق و لا الكذب ، و هو "ما لا يحصل مضمونه و لا يتحقق إلا إذا تلفظت به ، فطلب الفعل في : إفعال ، و طلب الكف في : لا تفعل ، و طلب المحبوب في التمني ، و طلب الفهم في الإستفهام ، و طلب الإقبال في النداء ، كل ذلك ما حصل إلا بنفس الصيغ المتلفظ بها"¹ .

1. أقسام الإنشاء :

ينقسم الإنشاء إلى غير طلبي و طلبي :

أ- الإنشاء غير الطلبي : هو " ما لا يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب و يكون بصيغ: المدح و الذم و صيغ العقود و القسم و التعجب و الرجاء ، و يكون برب و لعل و كم الخبرية"² .

فهذا الإنشاء ليس مبحثاً في الدرس البلاغي بل يبحث ضمن الدرس النحوي ، " و إنما المبحوث عنه في علم المعاني هو الإنشاء الطلبي لما يمتاز به من لطائف بلاغية"³ .

ب- الإنشاء الطلبي : هو " الذي يستدعي مطلوباً غير حاصل في اعتقاد المتكلم وقت الطلب"⁴ ، و يكون بالأمر و النهي و الإستفهام و التمني و النداء . و سنفصل هذه المباحث الإنشائية ذاكرين لها أمثلة من سورة يوسف عليه السلام .

1 السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 63

2 السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 63 .

3 السيد أحمد الهاشمي ، المرجع السابق ، ص 64

4 المرجع نفسه ، ص 64

1. الأمر :

الأمر هو : " طلب حصول الفعل من المخاطب على وجه الإستعلاء مع الإلزام"¹ . ويستنتج معنى الأمر بحسب القرائن و المقام ، فالأمر يكون استعلاء مع الأدنى و دعاء مع الأعلى و التماسا مع النظير ، و قد يخرج الأمر عن هذه الأغراض الأساسية إلى أغراض أخرى كل حسب مقامه و سياقه .

و أول المقامات الأمرية جاءت في قوله تعالى على لسان إخوة يوسف عليه السلام: " إقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين"² .

و غرض الأمر في هذه الآية الكريمة هو الإرشاد لأن الإخوة قبل هذه الآية تباحثوا في أمر حب يعقوب عليه السلام الشديد ليوسف و أخيه و الذي أثار حنقهم لذلك قام أحدهم و أرشدهم إلى طريقة يتخلصون بها من يوسف عليه السلام ليجدوا فسحة في وجه أبيهم و يقبل عليهم بكليته. فطابق هذا الأمر الإرشادي حال تسخط و تذر الإخوة ، فكان كلاما بليغا.

و نفس الشيء بالنسبة إلى قول الأخ الآخر : " ألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين"³ .

و غرض هذا الأمر: الإرشاد ، وجاء بعد الاعتراض على إرشاد الأخ الأول ، و فيه نوع من الرحمة على أخيه يوسف عليه السلام ، فإرشاده هذا -إلقاء يوسف في الجب لتلتقطه أحد القوافل- يتحقق غرضهم بإبعاده عن أبيهم دون إلحاق الإعدام به و تحمل تبعات قتل النفس البريئة ، فكان أليق إرشاد لحالهم الموصوفة سابقا .

و ثاني أمثلة الأمر في قوله تعالى على لسان إخوة يوسف عليه السلام: " أرسله معنا غدا يرتع و يلعب و إننا له لحافظون"⁴ .

غرض الأمر في هذا المقام هو: الإلتماس ، لأن الإخوة قبل هذه الآية أنكروا على أبيهم عدم انتمانه عليهم على يوسف عليه السلام ، فكانت مقالتهم الإنكارية بمثابة مقدمة دخلوا منها إلى طلبهم و هو إرسال يوسف عليه السلام معهم . و التماسهم ظاهر من خطابهم لأنهم عللوا طلبهم بإدخال المسرة على يوسف عليه السلام مع تأكيدهم حفظه مما يؤذيه . و السياق يدل على هذا الغرض أيضا ، و هو كائن في حال المتحاورين ، فالإخوة عازمون على نفي يوسف عليه السلام و الأب

1المرجع نفسه ، ص 64.

2يوسف ، 09

3يوسف ، 10

4يوسف ، 12

متوجس منهم خيفة ، فما كان على الإخوة إلا أن يلتمسوا من أبيهم أن يمكنهم من مطلبهم ، فأتى كلامهم على هذه الصفة المخصوصة - الإلتماس - .

و مقام آخر للأمر نجده في قول تعالى : " و قال الذي اشتراه من مصر أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه و لذا " ¹ .

و غرض الأمر في هذه الآية الكريمة هو: الإكرام ، وهو واضح في صيغة الأمر "أكرمي". فقد أمر العزيز زوجته أن تكرم يوسف عليه السلام فتجعل إقامته عندهم كريمة هنية ، و قصد بهذا الإكرام استجلاب محبة يوسف عليه السلام فينفعهم و يقوم بشؤونهم أو يكون هذا الإكرام سببا لبره بهما لو اتخذا منه ولدا .

فطلب الإكرام إذا مقام لرجاء النفع و البر .

كما نجد الأمر في قوله جل ثناؤه : " فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن و اعتدت لهن متكأ و آتت كل واحدة منهن سكينا و قالت أخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه و قطعن أيدهن و قلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم " ² .

موقع الأمر هنا في قوله تعالى : "أخرج" ، و غرضه هو : الإعذار. لأن امرأة العزيز ما طلبت من يوسف عليه السلام الخروج على النسوة إلا لإقامة عذر لها في مراودتها له ، و ذلك ما كان لها عندما دهشت النسوة لإطلاقته -عليه السلام- ، فرحن يحزرن أيديهن بالسكاكين و هن غير شاعرات و قلن معترفات معذرات : " حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم" .

كما يفيد هذا الأمر: - "أخرج" - غرضا آخر و هو: "القدرة" ، و مفاده أن امرأة العزيز قادرة على يوسف عليه السلام لأنه عبدها و فتاها ، فهو كما يجيبها إلى طلباتها و أوامرها المباحة فهو سيحبها- رغما عنه -إلى تخليته بينها و بين نفسه .

كما نجد الأمر في قوله تعالى : " ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل و أنا خير المنزلين(59) فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي و لا تقربون(60)" ³ . و موضع الأمر في: " ائتوني" ، و غرضه التهديد .

فقد هدد يوسف عليه السلام إخوته -المنكرين له- بعدم منحهم الطعام إن لم يأتوه بأخ لهم من أبيهم . و لم يستعمل يوسف عليه السلام التهديد وحده بل زاوجه بالترغيب و ذلك عندما قال

1يوسف ، 21

2يوسف ، 31

3يوسف ، 59-60

لإخوته : " ألا ترون أنني أوفي الكيل و أنا خير المنزلين"¹ . فوضع يوسف عليه السلام إخوته بين رهبة و رغبة فكان هذا أدعى لإخوته أن يطلبوا طلبه .

و قد أفلحت مناورات يوسف عليه السلام و ذلك حين رد الإخوة عليه مؤكدين له قائلين:
"سنراود عنه أباه و إننا لفاعلون"² .

فكان كلام يوسف عليه السلام الموجه لإخوته مناسباً لمقتضى حالهم فلاقى قبولهم إذ وعدوه أن يطلبوا طلبه و يحضروا أحاهم معهم في القادم من المرات .

كما نجد الأمر كذلك في قوله تعالى: " رب قد أتيتني من الملك و علمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات و الأرض أنت ولي في الدنيا و الآخرة توفني مسلماً و ألقني بالصالحين"³ .
فموضع الأمر من الآية الكريمة في : "توفني" و "ألقني" و غرضه : الدعاء .

و قبل أن يدعو يوسف عليه السلام الله أن يتوفاه مسلماً و يلحقه بالصالحين مهد لدعائه هذا بذكر نعم الله عليه و هي الملك و تأويل الأحاديث . فتقدير كلام يوسف عليه السلام : فكما أنعمت علي يا ربي بنعم كبيرة في الدنيا أتمم علي إنعامك و صل لي نعم الدنيا بنعم الآخرة . و بعد شرح أمثلة الأمر تنتقل إلى أمثلة النهي .

2. النهي :

و هو ثاني مباحث الإنشاء ، وحده هو : "طلب الكف عن الشيء على وجه الإستعلاء مع الإلزام، و له صيغة واحدة و هي المضارع المقرون بلا الناهية"⁴ .

و من أمثلة النهي في سورة يوسف عليه السلام قوله تعالى: " لا تقتلوا يوسف و ألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين"⁵ . و يقع النهي في قوله تعالى: " لا تقتلوا" و غرضه : الإرشاد . فقد أرشد أحد إخوة يوسف عليه السلام إلى عدم قتل يوسف لأن القتل جرم كبير و النفي أليق لهم في تحقيق ما أرادوه من إبعاد يوسف عليه السلام عن أبيه ليخلو لهم قلبه من حب يوسف عليه السلام فيقبل على جبهم .

1يوسف ، 61

2يوسف ، 101

3السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 69 .

4السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 69

5يوسف ، 10

كما نجد النهي أيضا في قوله تعالى: " و لما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون"¹ .

و النهي في:"لا تبتئس" ، و غرضه : التطمين ، لأن يوسف عليه السلام طلب من شقيقه الكف عن الابتئاس و الحزن - و الذي كان سببه الإخوة حين أبعده عن يوسف عليه السلام ، إضافة إلى فظاظتهم معه و غيرتهم منه - و أن يعوضهما بالسرور و الطمأنينة .

و إنما خاطب يوسف عليه السلام أخاه بهذا الخطاب لأنه يعلم الحال التي كان عليها شقيقه مع إخوته و يعلم أيضا الحال التي سيؤول إليها شقيقه عندما سيكون معه .

فكان علم يوسف عليه السلام بالحالين سببا في إيراد كلامه على هذه الصفة المخصوصة و هي: النهي .

و في سورة يوسف عليه السلام نهي آخر في قوله جل ثناؤه: " يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف و أخيه و لا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون"² .

و موقع النهي في قوله تعالى:"لا تيأسوا" ، و غرضه الإرشاد ، لأن يعقوب عليه السلام أرشد أبناءه إلى عدم اليأس من روح الله و من رحمته بالعثور على يوسف و أخيه و ألا يتعللوا بطول الزمان و بعد المكان ، و علل يعقوب عليه السلام نهيه بإعلامهم بأن اليأس صفة الكافرين فقط ، أما المؤمنون أمثالهم فلا يقنطون من رحمة الله و من فرجه . و هذا حسن تعليل منه لكي يحفز أبناءه على الاجتهاد في التحسس .

و بعد باب النهي يأتي باب النداء ، و نقول فيه :

3.النداء :

النداء هو " طلب المتكلم إقبال المخاطب عليه بحرف نائب مناب: أنادي المنقول من الخبر إلى الإنشاء"³ .

و أدوات النداء ثمانية :

✓ الهمزة و أي : لنداء القريب .

✓ يا ، و أي ، و أيا ، و هيا ، و وا : لنداء البعيد .

1 يوسف ، 69

2 يوسف ، 84

3السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 88.

ومن أمثلة النداء في سورة يوسف قوله تعالى : " إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنني رأيت أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر لي ساجدين"¹ .

فنادى يوسف عليه السلام أباه ليخبره برؤياه التي رآها في منامه ، و استعمل المنادي حرف نداء البعيد بالرغم من قرب المنادي منه و ذلك لأمرين ، الأول : لعلو شأن المنادي عند المنادي ، و هذا ظاهر هنا لأن الإبن ينادي أباه فيجب أن يوقره و يحترمه و يبره فيراعي حقوق الأبوة فيه .
و الثاني: ليشد انتباه المنادي ليقبل باهتمامه على المنادي ، لأن الخبر الذي سيلقيه المخاطب جدير بالاهتمام ، لهذا أنزل المخاطب منزلة البعيد المطلوب حضوره .

و ثاني أمثلة النداء في قوله جلّ جلاله : " يوسف أعرض عن هذا و استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين"² .

فنادى العزيز يوسف عليه السلام - حاذفا أداة النداء - بالرغم من قربه منه و ذلك تقريبا له وتلطف و ترفق من العزيز ليعرض يوسف عما كان من مرادة امرأة العزيز له على نفسه وأن يكتمه و لا يفشيه .

و ثالث الأمثلة الخاصة بالنداء من سورة يوسف عليه السلام في قوله تعالى: " يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا و أما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان"³ .

فنادى يوسف عليه السلام صاحبيه في السجن ليعبر لهما ما رآياه في منامها فاستفتح خطابيه لهما بالنداء ؛ لينتبه لهما سيلقي عليهما من خبر جدير بالاهتمام لأنهما استفتياه من قبل فيما رآياه . كما خاطبهما ب: " صاحبي " ، ليشعرهما بأنه مهتم بأمرهما حريص على إيفاء ما وعدهما به من تأويل حلميهما لأن ذلك من حق الصحبة .

لهذا استدعى هذا الحال أن يكون النداء هو الصفة المخصوصة التي يخاطب بها يوسف عليه السلام صاحبيه في السجن .

و بعد استعراض أمثلة النداء ننتقل إلى عرض أمثلة الإستفهام .

1 يوسف ، 4

2 يوسف ، 29

3 يوسف ، 41

4. الإستفهام :

الاستفهام هو : "طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل"¹ .

و أدواته هي: الهمزة ، و هل ، و ما ، و متى ، و أيان ، و كيف ، و أين ، و أنى ، و كم ، و أي .
ومن أمثلة الإستفهام من سورة يوسف عليه السلام قوله تعالى : " أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ " ² .

فخرج هذا الإستفهام عن غرضه الأصلي و هو طلب العلم إلى غرض "التقرير" لأن يوسف عليه السلام يعتقد اعتقادا جازما بأن هناك ربا واحدا ، فأراد بسؤاله لصاحبي السجن تقرير هذه الحقيقة التي يعتقدونها . و جاء هذا التقرير بصيغة الإستفهام ، و ذلك تنويحا منه -عليه السلام- في الكلام لأن هذا الإستفهام قد سبقه تقرير خبري ، فالتنوع هنا أبلغ في شد انتباه السامع ، ناهيك عما يحمله الإستفهام من إعمال فكر في المسؤول عنه ، فربما حصل الإقرار بالحكم الذي يتضمنه الإستفهام التقريري .

و من الإستفهام كذلك قوله تعالى : " قَالَ هَلْ أَمْنَكُمُ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالَهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ " ³ .

فالإستفهام هنا إنكاري في معنى النفي ، لأن يعقوب عليه السلام نفى أن أبنائه سيحفظون أخاهم -شقيق يوسف- لأنه جربهم من قبل و أمنهم على يوسف عليه السلام ففرطوا فيه و ألقوه في غيابة الجب ، فحمل هذا الإستفهام إنكار يعقوب عليه السلام الحفظ منهم .

و إستفهام آخر في قوله جل شأنه : " قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ " ⁴

و إستفهام يوسف عليه السلام هنا غير حقيقي لأنه يعلم ما فعل الإخوة به و بأخيه ، فهو إذا لا يطلب العلم بشيء يجهله بل يريد تذكير الإخوة بأن أفعالهم مع أخويهم كانت ذميمة ، لذلك كان غرض هذا الإستفهام : التوبيخ .

1 السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 71 .

2 يوسف ، 39 .

3 يوسف ، 64 .

4 يوسف ، 89 .

بالإضافة إلى إرداته- يوسف عليه السلام- الكشف عن شخصيته الحقيقية لإخوته بأنه هو أخوهم فسألهم هذا السؤال ليستنتج الإخوة بأن الذي كانوا يظنونهم عزيز مصر هو يوسف عليه السلام بعينه .

فلهذين السببين أورد يوسف عليه السلام كلامه في المثالين السابقين موصوفا بالإستفهام ليناسب مقتضى حال إخوته .

و بعد باب الإستفهام يأتي باب التمني .

5. التمني :

التمني هو "طلب أمر محبوب لا يرجى حصوله ، إما لكونه مستحيلا ، و إما لكونه ممكن غير مطموح في نيته ، و اللفظ الموضوع للتمني :ليت ، و قد يتمنى بهل ، و لو ، و لعل لغرض بلاغي ، و إذا كان المحبوب مما يرجى حصوله كان طلبه ترجيا ، و يعبر فيه بلعل و عسى ، و قد تستعمل فيه ليت لغرض بلاغي"¹ .

ومثال التمني الأول في سورة يوسف عليه السلام في قوله تعالى : "يوسف أيها الصديق أفنتا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، و سبع سنبلات خضر و آخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون"² .

ففي هذه الآية الكريمة ضربان للتمني ، الأول : في قول رسول الملك : " لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون" ، و هذا تمني ممكن الحصول إلى حد كبير لأن الرسول هو من سأل الملك أن يرسله إلى يوسف عليه السلام ليستفتيه في أمر رؤيا الملك ، فرجوعه إلى الناس ليخبرهم بتأويل يوسف عليه السلام أمر لا يحتاج إلى تمني .

و الضرب الثاني من التمني في هذه الآية قول الرسول -أيضا- : "لعلهم يعلمون" ، فهذا الضرب يحمل جوهر التمني ، لأن رسول الملك لا يعلم هل سيقنع الملك و المأم من ورائه بتأويل يوسف عليه السلام لرؤيا الملك أم لا ؟ لكن رسول الملك يثق ثقة كبيرة في يوسف عليه السلام لأنه جربه من قبل و وقف على ضلوعته في تأويل المرئي الحلمية ، لذلك أورد تمنيه بصيغة "ممكن الحصول" .

1 على الجارم ، مصطفى أمين ، البلاغة الواضحة ، دار المعارف ، دط ، 1999 ، ص 207
2 يوسف ، 46

أما مثال التمني الثاني فيقع في قوله جلّ جلاله : " و قال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون"¹ .

و ورد مثال التمني هذا على نفس صيغة مثال التمني الأول إذ اشتمل على ضربين للتمني فالأول : في قول يوسف عليه السلام: " لعلهم يعرفونها" - يقصد بضاعتهم التي جاؤوا بها إلى مصر - و هو تمني سهل الحصول ، لأن الإخوة حتما سيعرفون بضاعتهم بمجرد معاينتها ، وهذا ما كان منهم لما قالوا: " هذه بضاعتنا ردت إلينا"² . فهو تمني بمعنى التحقيق ، لأن التعرف على البضاعة سيتحقق بمجرد معاينتها .

و الضرب الثاني من التمني في هذا المثال في قول يوسف عليه السلام:"لعلهم يرجعون" ، فهذا الضرب يحمل جوهر التمني ، لأن يوسف عليه السلام يتمنى أن يرجع الإخوة و معهم شقيقه ، و هو تمنى ذلك لأنه غير متأكد تماما من رجوعهم ، لذلك إستجد - يوسف عليه السلام- خطة من ثلاثة فصول ؛ أولا : أنه أنزلهم منزلا كريما و أوفى لهم الكيل ، و ثانيا: هدهم بأن يمنع عنهم الكيل إن لم يحضروا شقيقه معهم ، و ثالثا : ردّ إليهم بضاعتهم التي جلبوها معهم .

فطلب حصول المحبوب في المثالين حمل الكلام على أن يأتي بصيغة التمني ليطابق الكلام مقتضى الحالين ، فكان على أبداع و أعجز طريق .

و بعرضنا لأمثلة التمني أنهينا أبواب الإنشاء ، لننتقل بعده إلى عرض باب آخر من أبواب علم المعاني ، و هو : القصر .

أ. القصر :

و هو ثالث أبواب علم المعاني و هو: " تخصيص أمر بأخر بطريق مخصوص"³ .

و طرق القصر المشهورة أربع :

- أ- " القصر بالنفي و الإستثناء: و هنا يكون المقصور عليه ما بعد أداة الاستثناء .
- ب- القصر بإثما: و يكون المقصور عليه مؤخرا وجوبا .
- ج- القصر بالعطف بلا ، أو بل ، أو لكن ، فإن كان العطف بلا كان المقصور عليه مقابلا لما بعدها و إن كان العطف ببل أو لكن كان المقصور عليه ما بعدها .

1 يوسف ، 62 .

2 يوسف 65 .

3 على الجارم ، مصطفى أمين ، البلاغة الواضحة ، ص217.

د- القصر بتقديم ما حقه التأخير ، و هنا يكون المقصور عليه هو المقدم"¹ .

و من القصر في سورة يوسف عليه السلام نجد قوله تعالى: " قال لا يأتِيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتِيكما "² .

فقد خصص يوسف عليه السلام تأويل منامي صاحبي السجن بإتيان الطعام . و قصد إلى هذا التخصيص لزيادة إقبالهما عليه فيستغله في دعوتها إلى الصراط المستقيم وإلى العقيدة السوية ، و هذا من حنكته و فطنته -عليه السلام- في انتهاز الفرص المتاحة بل خلقها من أجل تبليغ دعوته الحقّة .

و من أمثلة القصر كذلك قوله تعالى: " قال إنما أشكوا بثي و حزني إلى الله و أعلم من الله ما لا تعلمون "³ .

فقد خصّ يعقوب عليه السلام الله عزّ و جلّ بشكواه و بيثه حزنه ، أي : " يشكوا إلى الله لا إلى نفسه فيجدد الحزن ، فصارت الشكوى لهذا القصد ضراعة و هي عبادة لأن الدعاء عبادة"⁴ .

و اللجوء إلى الله تعالى لتنفيس الكربات من سمات الأنبياء و الصالحين ، فيعقوب نبي الله و يعلم من الله ما لا يعلم سواه . و سياق هذا القصر هو أن يعقوب عليه السلام لما أعتزل أبناءه بعد تضييعهم لابنه الثاني - بنيامين - تجدد حزنه على يوسف عليه السلام ، فكان هذا الحزن والأسف سببا في تشنيع الأبناء على أبيهم يعقوب عليه السلام .

فردّ الأب الشفوق على أبنائه قائلا : إن الذي أخصه بشكواي و بيثي إنّما هو الله وحده ، فهو من يعلم بضنكي و وجدني . فهذه الحال هي التي حملت يعقوب عليه السلام على أن يورد كلامه مصورا بصورة القصر .

و يلي باب القصر باب المساواة و الإيجاز و الإطناب .

ب. المساواة الإيجاز و الإطناب : و هو رابع أبواب علم المعاني ، و نقول فيه :

و للكلام ثلاث صفات: الإيجاز و المساواة و الإطناب ، و لا يعد الكلام بليغا إلا إذا كان مطابقا لمقتضى حال المخاطب على الصفات السابقة الذكر .

1. المساواة :

1 على الجارم ، مصطفى أمين ، المرجع السابق ،ص217.

2 يوسف ، 37

3 يوسف ، 86

4محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير و التنوير ، ج13 ،ص44

المساواة هي " أن تكون المعاني بقدر الألفاظ و الألفاظ بقدر المعاني لا يزيد بعضها على بعض ، و هو المذهب المتوسط بين الإيجاز و الإطناب"¹ ، و هي الأصل الذي يكون أكثر الكلام على صورته ، و المقياس الذي يقاس به الكلام .

و أول أمثلتها من سورة يوسف عليه السلام قوله تعالى: " أرسله معنا غدا يلعب ويرتع و إناله لحافظون"² .

فحمل الإخوة كلامهم عدة أمور و هي : إرسال أبيهم ليوسف عليه السلام معهم و حدّوا ذلك الوقت ب"غدا " ، ثم علّوا سبب إرساله باللعب و الإنشراح ، و لطمأنة أبيهم أكدوا له حفظهم لأخيهم .

فقد تساوت المعاني المقصودة و الألفاظ الدالة عليها في الآية السابقة ، حيث لو نقصت الألفاظ قصرت عن أداء المعاني المراد إيصال فحواها ، و إن زادت عن نصابها ربما شك الأب في أن الأبناء يدبرون أمرا لإيذاء يوسف عليه السلام . لذلك جاء خطاب الأبناء لأبيهم مصورا بصورة المساواة .

و ثاني أمثلة المساواة جاءت في قوله تعالى : " و قال الملك إنني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف و سبع سنبلات خضر و آخر يابسات"³ .

ففي هذا الخطاب نقل الملك فحوى رؤياه الحلمية إلى الملام من حوله ، و قد صورها بصورة المساواة ، فأنت ألفاظ كلامه على قدر معانيه ، و ذلك لأن الدقة التامة في الإخبار عن الرؤيا يورث التعبير المطابق لها ، لأن علم التأويل يأخذ بالإشارات و القرائن و الأوصاف التي تحملها الرؤيا ، فأبي زيادة أو نقصان في الألفاظ أو المعاني ينحرف بعبارتها ، فحمل هذا المقام الملك على أن يورد كلامه مصورا بصورة المساواة .

2. الإيجاز:

الإيجاز هو: "وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقل منها وافية بالعرض المقصود مع الإبانة والإفصاح"⁴ .

أ. أقسام الإيجاز:

و ينقسم الإيجاز إلى قسمين إيجاز القصر و إيجاز الحذف .

1 أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص 185

2 يوسف ، 12

3 يوسف ، 43 .

4 السيد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 193 .

(1) إيجاز القصر :

" فالقصر تقليل الألفاظ و تكثير المعاني"¹ ، و لا يقدر فيه محذوف و يسمى كذلك "إيجاز البلاغة " .

و من أمثلته في سورة يوسف عليه السلام قوله تعالى: " و جاؤوا على قميصه بدم كذب"² ، فقد وصف سبحانه و تعالى الدم بالكذب ، و تقدير الكلام : أنهم نزعوا عن يوسف عليه السلام قميصه ثم ذبحوا جديا فلطخوه بدمه ثم أحضروا القميص إلى أبيهم . فانظر إلى عبارة القرآن الكريم كيف جاءت موجزة لكل ما تقدم من المعاني . و حقيقة هذه الجملة أنها جملة اعتراضية جاءت بين إداء الإخوة أكل الذئب ليوسف ، و بين رد الأب عليهم ، لذلك أنت موجزة لأن المتلقي ينتظر ماذا سيكون موقف الأب من الإخوة الذين ضيعوا يوسف عليه السلام بعد أن أكدوا لأبيهم حفظهم له ، فهذا ما جعل هذه العبارة تجيء بصورة موجزة فطابقت مقتضى حال المخاطبين .

(2) إيجاز الحذف :

و يكون إيجاز الحذف " بحذف شيء من العبارة لا يخل بالفهم عند وجود ما يدل على المحذوف من قرينة لفظية أو معنوية "³ .

و من مثله ما نجده في قوله تعالى على لسان العزيز: " يوسف أعرض عن هذا و استغفري لذنبك"⁴ . فتقدير الكلام : "يا يوسف أعرض عن هذا الأمر و استغفري أنت الله لذنبك" ، فحذفت من العبارة القرآنية الألفاظ التالية: يا و الأمر و أنت و الله . و لقد أورد العزيز كلامه هذا بطريقة الإيجاز بالحذف لأنه - ربما - أراد الإستعجال في إنهاء ذلك الموقف المحرج الذي تلطخ من جرائه شرفه . فاستدعى هذا المقام أن يأتي كلام العزيز موصوفا بصفة الإيجاز بالحذف .

(3) الإيجاز بحذف الأحداث بين المشاهد القصصية :

فقد عمد في قصص القرآن الكريم إلى حذف و إسقاط كل حدث أو قول ليس له عبرة من سوقه ، لأن العبرة هي الهدف الأساسي من سوق القصص القرآني ، لكن كل محذوف من القصة يشار إليه علنا بقرينة لفظية أو ضمنا بقرينة معنوية .

1 أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص 181 .

2 يوسف ، 18 .

3 السيد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 195

4 يوسف ، 29

و نجد هذا الضرب من الإيجاز - مثلا - بين قوله تعالى: " و قال للذي ظن أنه ناج منهما أذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين"¹ و بين قوله تعالى: "و قال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون"² .

و ما يدل على أن هناك محذوفا بين الآيتين هي القرينة اللفظية: " فلبث في السجن بضع سنين"، فأشارت هذه القرينة على مدة لبث يوسف عليه السلام في السجن ، لكنها - القرينة - لم توضح ما كان حاله أو فعله في السجن ، لكن القرينة المعنوية توضحهما و المستنتجة من سياق المحاورات التي دارت بين يوسف عليه السلام و أصحابه في السجن حيث كان حاله وفعله في السجن هو دعوة أصحابه إلى الله و تحبيبهم في دينه ، و يكره إليهم الشرك و الكفر.

فلما علمت مدة السجن و علم عمل المسجون فيها بالقرائن ، كان إسقاط ذكرهما مما استدعاه المقام القصصي ، و لو ذكر المحذوف لكان تكرارا ، فيكون مدعاة لجلب الملل الذي ينافي طبيعة القصص القرآني الذي يحمل الفائدة و المتعة في آن .

3. الإطناب:

الإطناب هو: " زيادة اللفظ على المعنى لفائدة ، أو هو تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أو ساط البلغاء"³ .

و أول مثال له من سورة يوسف عليه السلام قوله جلّ ثناؤه: " و شرّوه بثمن بخس دراهم معدودة و كانوا فيه من الزاهدين"⁴ .

فكررت في هذه الآية ثلاثة صيغ و التي تفيد معنى واحد و هو قلة ثمن المشتري ، فلو ذكرت صيغة واحدة فقط منهم لأدت المعنى كاملا ، لكن ذكر كل هذه الألفاظ- لأداء معنى واحد- لم يكن عبثا ، أو من سبيل التطويل دون فائدة بل كان لفائدة جليلة و هي؛ التأكيد على زهادة المشتريين في يوسف عليه السلام إما لجهلهم بمكانته أو استعجالا منهم في التخلص منه لأنهم التقطوه و خافوا أن تظهر حقيقة أمره فيخسروا ثمنه .

لهذه الفائدة جاء هذا الكلام بهذه الصفة المخصوصة و هي: الإطناب .

1 يوسف، 42

2 يوسف، 43

*لأن الإيجاز و الإطناب نسيان ، لذلك يؤخذ بالمستوى المتوسط للبلغاء في الحكم عليهما .

3 السيد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 196 ، 197

4 يوسف، 20

ومثال الإطناب الثاني جاء في قوله تعالى: "و شهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت و هو من الكاذبين (26) و إن كان قميصه قد من دبر فكذبت و هو من الصادقين" .

و المتمعن في الأيتين السالفتين يقف على زيادة ألفاظهما على معانيهما ، و لو أسقطنا بعض الألفاظ لما اعتور المعنى ، و هي قول الشاهد: " و هو من الكاذبين" في الآية الأولى ، و قوله: "و هو من الصادقين" في الآية الثانية .

لكن لهذه الزيادات اللفظية فائدة و هي أن شهادة الشاهد هي من قبيل تقرير الحكم بالقرائن الحسية- قد القمص- ، ففي تقرير احكم كان لزاما عليه تبرئة طرف و إدانة طرف آخر لذلك ذكر حال طرفي القضية في كلا الحالتين ، بالإضافة إلى توكيدها- الزيادات- للمعنى المقصود .

فلهذين السببين جاء كلام الشاهد مطنبا؛ لأن تقرير الأحكام استدعى هذه الصفة المخصوصة .

و بهذا الباب من علم المعاني نكون قد أتينا على نهاية هذا العلم ، لنباشر بعده في عرض علم جديد و هو علم البيان .

المبحث الثاني : علم البيان :

1. تعريف علم البيان :

البيان هو: " أصول و قواعد يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق يختلف بعضها عن بعض في وضوح الدلالة العقلية على نفس ذلك المعنى"¹ ، مع مطابقة كل منها - الطرق - لمقتضى الحال .

2. مباحث علم البيان:

و موضوع هذا العلم هو الألفاظ العربية من حيث : التشبيه و المجاز و الكناية .

أ. التشبيه :

التشبيه هو : " عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر قصد اشتراكهما في صفة أو أكثر بأداة ، لغرض يقصده المتكلم"² .

ومثال التشبيه في سورة يوسف عليه السلام قوله تعالى : " فلما رأيته أكبرنه و قطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم"³ .

فالتشبيه هنا بليغ لاشتماله على طرفي التشبيه - المشبه و المشبه به- و حذفت الأداة و وجه الشبه ، و سمي كذلك أيضا - بليغ - : لأن " ذكر الطرفين فقط يوهم باتحادهما و عدم تفاضلها فيعلوا المشبه على المشبه به ، و هذه هي المبالغة في قوة التشبيه"⁴ . و قصدت النسوة بهذا التشبيه مدح يوسف عليه السلام و تحسين حاله و تعظيمه لذلك صورته بصورة تستحسنها النفس لأن النفوس فطرت على تشبيه كل حسن و طاهر بالملائكة ، و لأنها أحسن المشبهين بهم في هذا الباب . فكانت طريقتهم في إيراد معنى حسن يوسف عليهم السلام أوضح الطرق في الدلالة عليه ، مع مطابقتها - الطريقة - لمقتضى الحال .

ب. المجاز :

(1) تعريف المجاز:

المجاز هو: " اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقة ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي"⁵ ، و للمجاز عدة أنواع منها :

1 يوسف ، 26-27
2 السيد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 212
3 السيد الهاشمي ، المرجع السابق ، ص 214
4 يوسف ، 31
5 السيد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 235

(2) أنواع المجاز :

أ. المجاز المفرد المرسل :

المجاز المفرد المرسل هو: "الكلام المستعمل قصدا في غير معناها الأصلي لملاحظة علاقة غير المشابهة مع قرينة دالة على عدم إرادة المعنى الوضعي"¹ .

و من أمثلة المجاز المفرد المرسل نذكر قوله تعالى: " اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين"² .

و هذا المجاز مثبت في قولهم: " يخل لكم وجه أبيكم " ، و هو مجاز مفرد مرسل علاقته : "الآلية" ، لأن الوجه هو آله الإقبال ، فالإنسان إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه و لأن أول ما يستقبل من الإنسان وجهه ، فقصدوا بخلو الوجه : خلو قلب يعقوب من حب يوسف عليه السلام ، وإذا خلا من حب يوسف شغل بحبهم .

و فائدة هذا المجاز أنه أكد و أوضح إلى أي مدى وصل حسد و بغض إخوة يوسف عليه السلام له وذلك لما اعتقدوا أن أباهم انصرف بكل حبه إلى ابنه الصغيرين و أقبل عليهما دونهم ، و هم من يقومون بشؤونه جميعها ، فقررروا قتل يوسف عليه السلام .

ب. المجاز العقلي :

المجاز العقلي " هو إسناد الفعل أو ما في معناه من اسم الفاعل ، أو اسم مفعول أو مصدر إلى غير ما هو له في الظاهر من المتكلم لعلاقة ، مع قرينه تمنع من أن يكون الإسناد إلى ما هو له".

و من أمثلته قوله تعالى : " و جاؤوا على قميصه بدم كذب"³ .

ففي هذه العبارة القرآنية مجاز عقلي، و علاقته: الإسناد إلى المصدر ، فوصف الدم بالكذب بوزن المصدر و الأصل فيه أن يكون مفعولا أي : "دم مكذوب" لأنه ليس دم يوسف عليه السلام بل هو دم واحد من مواشيهم .

و جاءت هذه العبارة بصيغة المجاز العقلي لإيضاح مدى افتراء و كذب و غش الأبناء لأبيهم ، فلو جاءت العبارة السابقة عن طريق الحقيقية لما أفادت عمق المعنى المذكور. و من أمثلة المجاز

1 السيد الهاشمي ، المرجع السابق ، ص 253

2 المرجع نفسه ، ص 154

3 يوسف، 09 .

العقلي - أيضا - نجد قوله جل ثناؤه على لسان أبناء يعقوب عليه السلام : "و اسأل القرية التي كنا فيها"¹ .

فقد أسند السؤال إلى القرية - و هي مكان - و المقصود هو؛ سؤال أهل القرية . و قد وردت هذه العبارة على صفة المجاز العقلي و ذلك تنويه من المتكلمين بأن صدقهم ظاهر جلي في إدعائهم بأن ابن يعقوب عليه السلام قد سرق لأن كل من في القرية يعلم ذلك فأصبحت القرية هي من تعلم بخبر السرقة ، مبالغة منهم في ظهور الخبر .

فبالرغم من قصر العبارة و وجازتها إلا أن دلالتها كانت عميقة ما كانت تؤديها العبارة الموصوفة بالحقيقة .

ج. الإستعارة :

ويعرف عبد القادر الجرجاني الإستعارة قائلا: "إعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصلا في الوضع اللغوي معروفا تدل عليه الشواهد على أنه اختص به حين وضع ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في ذلك الأصل و ينقله إليه نقلا غير لازم ، فيكون هناك كالعارية"² .

و بمعنى آخر هي : " استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه و المعنى المستعمل فيه ، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي"³ .

و من مثلها قوله تعالى : " إذ قال يوسف لأبيه يا أبت أني رأيت أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر رأيتهم لي ساجدين"⁴ .

ففي هذه الآية الكريمة استعارة تصريحية تبعية ، فهي تصريحية لأنه صرح فيها بالمشبه به وهو: " الكواكب و الشمس و القمر " ، و هي تبعية لأن اللفظ المستعار اسم فاعل وهو : "ساجدين" .

فقد استعير فعل السجود- الذي يحمله معنى اسم الفاعل "ساجدين"- الذي هو للعاقلين لغير العاقلين و هي الكواكب .

و جاءت هذه العبارة على سبيل الإستعارة التصريحية لأنها من قبيل المرثي الحلمية التي تأتي بشكل رموز و إشارات مشفرة بقرائن يستدل بها و يعتمد عليها المعبر في تأويلها ؛ فلكونها رؤيا جاءت بهذه الصفة الخصوصية .

1 السيد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 158 .

* العارية : المستعارة .

2 يوسف ، 18 .

3 يوسف ، 72 .

4 عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، ت ، محمد الفاضلي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1420هـ-1999م ، ص27

و أفادت هذه الرؤيا بهذه الصفة معنا مجملا مفاده ؛ أنه سيكون ليوسف عليه السلام أمرا عظيما
وشأننا كبيرا في اللاحق من عمره .

بالإضافة إلى ما تحمله هذه الرؤيا - الاستعارة - من تشويق لأن السامع يريد الوقوف على عبارتها
لذلك جاءت كتمهيد قدم لقصة يوسف عليه السلام .

د. الكناية :

و يعرف عبد القاهر الجرجاني الكناية قائلا : " أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا
يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة و لكن يجيء إلى معنى هو تاليه و ردفه في الوجود فيوميء به
إليه و يجعله دليلا عليه " ¹ .

و بمعنى آخر هي - الكناية - : " لفظ أريد به غير معناه الذي وضع له مع جواز إرادة المعنى
الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته " ² .

و من الكنايات في سورة يوسف عليه السلام قوله تعالى : " و شره بئس بخرس دراهم معدودة
و كانوا فيه من الزاهدين " .

و موضع الكناية هنا : " دراهم معدودة " ، فكني عن قلة الدراهم بالعدّ لأنها كانت "تعد عدا و لا
توزن ، لأنهم كانوا لا يزنون إلا إذا بلغ أوقية ، و هي الأربعون ، و يعد ما دونها فقيل للقليل
معدود، لأن الكثيرة يمتنع من عدّها لكثرتها" ³ .

فأفادت هذه الكناية أن زهد أصحاب السيارة في ثمن يوسف كان كبيرا . لأنهم رضوا بأن يبيعوه
بدراهم معدودة لم تبلغ الأوقية - وقد فصلنا أسباب زهدهم فيه في فن الإطناب - .

ومنها - الكنايات - قوله تعالى : " فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن و أعتدت لهن متكأ و آتت
كل واحدة منهن سكينا و قالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه و قطعن أيديهن و قلن حاش لله ما هذا
بشرا إن هذا إلا ملك كريم " ⁴ .

و محلّ الكناية في قوله تعالى : " قطعن أيديهن " ، فكني عن شدة الجرح و كثرته للأيدي بالقطع
قطع إبانة . و أوضحت هذه الكناية إيضاحا تاما لا لبس فيه مدى دهش و انبهار النسوة بحسن يوسف
عليه السلام ، فأعذرن بعده امرأة العزيز في مرادتها ليوسف عليه السلام عن نفسه . فما كان
للتصريح أن يصور المعنى السابق - شدة الجرح - بالعمق والوضوح الذي صورته به الكناية .

1 السيد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 264

2 يوسف ، 4

3 عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، المكتبة لعصرية ، بيروت لبنان ، دط ، 1422هـ-2002م ، ص 113

من خلال عرضنا لأمثلة من سورة يوسف عليه السلام و ما فيها من لطائف بيانية ، استدللنا من خلالها على مدى إظهار مباحث علم البيان لإعجاز المقامات القصصية في سورة يوسف عليه السلام ، فكل مقام قصصي استدعى شكلا معينا من التعبير البياني عنه ، و لو خرج عما كان قد جاء عليه لألفياه مقصرا في تبليغ المعنى الذي رمي إليه .

و آخر علم نختم به دراستنا البلاغية هذه هو علم البديع ، و نقول فيه :

المبحث الثالث : علم البديع :

1. تعريف علم البديع :

البديع هو علم : " تعرف به الوجوه و المزايا التي تزيد الكلام حسنا و طلاوة و تكسوه بهاء و رونقا ، بعد مطابقته لمقتضى الحال ، مع وضوح دلالاته على المراد لفظا و معنى"¹ .

2. أقسام علم البديع :

و ينقسم علم البديع إلى قسمين ، بديع معنوي أو المحسنات المعنوية ، و بديع لفظي أو المحسنات اللفظية .

أ- المحسنات المعنوية :

البديع المعنوي: " هو الذي وجبت فيه رعاية المعنى دون اللفظ فيبقى مع تغير الألفاظ"² .

و يظهر في عدة فنون نذكر منها :

(1) الإستطراد :

هو أن " يخرج المتكلم من الغرض الذي هو فيه إلى غرض لمناسبة بينهما ثم يرجع فينتقل إلى إتمام الكلام الأول"³ .

و مثال الإستطراد من سورة يوسف عليه السلام قوله جلّ شأنه : " ودخل معه السجن فتيان قال أحدهم إنني أراني أعصر خمرا وقال الآخر إنني أراني أحمل خبزا تآكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين(36) قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذالكما مما علمني ربي إنني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون(37) واتبع ملة آبائي

1 السيد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 297

2 يوسف ، 20

3 فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، ج18 ، ص88

إبراهيم و إسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (38) يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار(39) ما تعبدون إلا أسماء سميتموها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر لا يعلمون (40) يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان (41) " ¹ .

فقد انتقل يوسف عليه السلام من خطابه لصاحبي السجن واعدإياهما بأنه سيؤول لهما ما رأياه في مناميهما إلى دعوتهما إلى الدين الصحيح ونبذ الشرك ثم عاد ليؤول لهما ما رأياه .

و المناسبة بين الموضوعين هي ؛ استغلال يوسف عليه السلام إقبال صاحبي السجن عليه - بوضعها ثقتهما فيه - في هدايتهما إلى الصراط السوي و إلى عقيدة التوحيد الخالص .

(2) المطابقة :

المطابقة هي: " الجمع بين الشيء و ضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو بيت من بيوت الشعر" ² .

و نجد المقابلة في قوله تعالى : " و قال للذي ظنّ أنه ناج منهما أذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين" ³ .

و المطابقة في هذه الآية الكريمة بين "أذكرني" و "أنساه" ، فهما كلمتان مضادتان في المعنى لكن هذا البون في المعنى أكسبهما قوة و جزالة ، فظهر لنا مدى الأسى الذي شعر به يوسف عليه السلام عندما علم أن الذي عوّل عليه أن يذكر له مظلمته عند الملك نساه ، و شتان بين الوضعيتين - الذكر و النسيان - لذلك قالوا : "بالأضداد تتمايز الأشياء " .

(3) المقابلة :

المقابلة هي : " أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب" ⁴ .

1 يوسف ، 31 .

2 السيد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 308 ، 309 .

3 السيد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 308(من الهامش) .

4 يوسف ، 36-41 .

و مثالها في قوله جل ثناؤه : " يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار"¹ .
فالمقابلة هنا بين "أرباب متفرقون" و "الله الواحد": فأجزاء العبارة الأولى تقابل أجزاء العبارة
الثانية ، ف "أرباب" تقابل "الله" و "متفرقون" تقابل "الواحد" .

و لهذا الفن البديع دور كبير في إبراز الفروق بين المتضادين ، ل يتميز الحسن من القبيح ، وهو
ما كان في هذه المقابلة السابقة إذ عقد يوسف عليه السلام مقارنة عن طريق الإستفهام بين "أرباب
متفرقون" و "الله الواحد" ، مخاطبا بذلك عقلي صاحبي السجن و تركهما يختاران ما يعبدان .
و لإبراز الفرق بين المعبودين عمد يوسف عليه السلام إلى هذه الصفة المخصوصة من الكلام
والمصورة بصور المقابلة .

(4) إئتلاف اللفظ مع المعنى :

إئتلاف اللفظ مع المعنى هو : " أن تكون الألفاظ موافقة للمعاني"² .

وقبل أن نمثل لهذا الفن يجدر بنا الإشارة إلى حقيقة و هي: أن القرآن الكريم يتموضع في المرتبة
الأولى من البلاغة - لأنه كلام الله المعجز بلفظه و معناه - لذلك كل ألفاظه تأتلف مع معانيه و بشكل
مطلق . و نحن لا نريد هنا إلا الإستدلال على هذه الحقيقة .

و مثال هذا الفن البديعي قوله تعالى: " قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون
من الهالكين"³ .

فألفاظ هذه الآية الكريمة قوية في بنيتها الصوتية لكي تأتلف مع المعنى المقصود و هو تشنيع
أبناء يعقوب عليه السلام عليه لأنه بالغ في حزنه على يوسف عليه السلام وأن حزنه هذا سيودي
بحياته .

لهذا المقصد جاءت هذه الآية الكريمة بهذه الصفة المخصوصة الموصوفة بائتلاف لفظها مع
معناها لتتناسب الألفاظ مع المعاني فما الألفاظ إلا أجساد للمعاني .

(5) تأكيد المدح بما يشبه الذم :

و هو إيراد كلام ظاهره الذم و باطنه المدح .

1 أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص 316

2 يوسف ، 42.

3 السيد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 314.

و مثاله من سورة يوسف عليه السلام قوله تعالى: " قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف و أخيه إذ أنتم جاهلون"¹ .

فأول ما يتبادر إلى ذهن من يقرأ هذه الآية أن يوسف عليه السلام يذم إخوته ويستقبح فعلهم به و بأخيه و ينعتهم بالجهل كذلك . لكن المتأمل فيها يقف على نقيض الظاهر لأن يوسف عليه السلام أثبت التوبة لإخوته حين قال لهم بأن فعلهم به و بأخيه كان في زمن الجهالة أما الآن فهم في زمن التوبة ، و هو تلميح منه - عليه السلام - لهم بأنه سامحهم لأنه رأى عليهم مظاهر التوبة النصوح .

(6) التذييل :

التذييل هو : " إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه ، حتى يظهر لمن لم يفهم و يتوكد عند من فهمه"² ، و يأتي التذييل دائما في ذيل الكلام أي في آخر الكلام المراد توكيده .

و مثاله من سورة يوسف عليه السلام قوله تعالى: " فلما استياسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله و من قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي و هو خير الحاكمين"³ .

و موضع التذييل في هذه الآية في قوله تعالى : " و هو خير الحاكمين " ، من عبارة "يحكم الله لي" ، فرأينا كيف أعيد ذكر الألفاظ المترادفة على نفس المعنى ، و غاية هذا التذييل إبراز المعنى و تأكيده . و عن هذه الغاية قال أبو هلال العسكري: " للتذييل في الكلام موقع جليل و مكان شريف خطير لأن المعنى يزداد به انشراحا و المقصد اتضاحا"⁴ .

(7) تذييل القصة القرآنية :

و نقصد به ذلك التعقيب الذي يأتي في نهاية القصة فيخلصها .

و تذييل قصة يوسف عليه السلام أتى في قوله تعالى: " ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك و ما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم و هم يمكرون"⁵ .

و نحن رشحنا هذه الآية الكريمة لكي تكون تذييلا لقصة سيدنا يوسف عليه السلام لانطباق تعريف التذييل عليها ، فاسم الإشارة الذي جاء في أول هذه الآية إشارة إلى ما ذكر من حوادث

1 يوسف، 39.

2 أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص 380

3 يوسف ، 80

4 أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص 387

5 يوسف ، 102

ووقائع و عظات في سورة يوسف عليه السلام . فهذه الآية إذا تذييل لقصة يوسف عليه السلام بكاملها ، بالإضافة إلى أنها ترادف معنى آيتين جاءتا في أول السورة و هما في قوله تعالى: " نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن و إن كنت من قبله لمن الغافلين"¹ . و قوله تعالى: " لقد كان في يوسف و إخوته آيات للسائلين"² .

و وجه ترادف آية التذييل مع الآية الأولى هو أن جميع أجزاء الآيتين تتطابق ، فعبرة "أنباء الغيب" ترادف جملة " نحن نقص عليك أحسن القصص" .

و عبارة "نوحيه إليك" ترادف عبارة "بما أوحينا إليك" .

و عبارة "ما كنت لديهم" ترادف عبارة "و إن كنت من قبله لمن الغافلين" .

و أما وجه ترادف آية التذييل مع الآية الثانية هو معنى اسم الإشارة "تلك" و الذي يشير إلى الحوادث و العظات التي هي في سورة يوسف عليه السلام ، فيترادف هذا المعنى مع معنى الآية الثانية و التي جاء فيها ذكر العظات صراحة و هي: " الآيات" .

و بعد انتهائنا من التمثيل للمحسنات المعنوية نباشر تباعا تمثيلنا للمحسنات اللفظية .

ب. المحسنات اللفظية :

و البديع اللفظي هو "ما رجعت وجوه تحسينه إلى اللفظ دون المعنى ، فلا يبقى الشكل إذا تغير اللفظ"³ .

و للمحسنات اللفظية عدة فنون نذكر منها :

(1) الجناس:

الجناس هو " تشابه لفظتين في النطق و اختلافهما في المعنى"⁴ .

و نجد هذا الفن البديع في قوله تعالى: " و تولى عنهم و قال يا أسفي على يوسف"⁵ .

و الجناس في هذه الآية الكريمة بين لفظة "أسفي" و لفظة "يوسف" ، و يسمى بالجناس الناقص ، لعدم تطابق اللفظتين في النطق .

1 يوسف ، 3

2 يوسف ، 7

3 السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص 308(من الهامش)

4 السيد أحمد الهاشمي ، المرجع السابق ، ص 343

5 يوسف ، 84

فزاد هذا الجناس الكلام حسنا وطلاوة و أكساه بهاء ورونقا وحلاه بنغم شذي تطرب له النفس قبل الأذن ، فكانت كل هذه المزايا اللفظية بعد مطابقة الكلام الذي يحمل الجناس لمقتضى الحال ، لأن الأسف يعني الحزن الشديد وهذا المعنى ما يطابق حال يعقوب عليه السلام تماما ، فلو استبدلتنا - لفظنا الجناس - بغيرهما لزال التنيغم أولا ثم انحرف المعنى ثانيا .

(2) السجع :

السجع هو: " توافق الفاصلتين في الحرف الأخير"¹ .

و هو كثير في القرآن الكريم ، و نضرب له مثلا من سورة يوسف عليه السلام بقوله تعالى: " قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف و إنا له لناصحون(11) أرسله معنا غذا يلعب و يرتع و إنا له لحافظون (12) قال إنني ليحزني أن تذهبوا به و أخاف أن يأكله الذئب و أنتم عنه غافلون(13) قالوا لئن أكله الذئب و نحن عصابة إنا إذا لخاسرون(14)"² .

فتوافق الفواصل التي هي رؤوس الآيات السابقة أكسبها حسنا و جمالا و ذلك لإحداثه نغما موحدا في نهاية كل أية ، فتستلمحه النفس وتستلذه الأذن و هذا ما يزيد شغفنا بالقصص القرآني لأن النفس بطبيعتها تميل إلى التفكك بالقصص .

و بصفة عامة ، فإن دور البديع في القرآن الكريم هو تحسينه و تزيينه حتى يقع في النفس موقع مؤثرا فتستلمحه و تستلذه و تطلب الاستزادة منه فتقبل على تدبر آياته و إمعان النظر فيها فيحصل الإقناع لما فيه من المطابقة المطلقة لمقتضى الحال و الإمتاع المطلق لما يستلذ به من صوت حسن و نغم شذي .

و نجمل القول بعد الانتهاء من عرض الفصل الثالث فنقول: أن استدلالنا بعلوم البلاغة وفنونها على إعجاز القصة القرآنية قد أتى أكله ، لأننا سقنا أمثلة لفنون البلاغة من سورة يوسف عليها السلام و برهنا على مدى مراعاة منزل القرآن العظيم - جل جلاله - لمقتضيات الأحوال في كل مقامات القصة و تفصيلاتها .

فما يبقى لنا إلا أن نقول : إن قصة يوسف عليه السلام أحسن القصص حقا و صدقا لأننا وجدناها كذلك من كل الوجوه التي قلبناها عليها .

1 السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص351
2 يوسف ، 11-14

الخاتمة :

ومن خلال بحثنا هذا ، و الذي حاولنا من خلاله التدليل على الإعجاز البلاغي للقصص القرآني و بخاصة الإعجاز المقامي لقصة يوسف عليه السلام .

و قد خلصنا - من خلال ما سبق عرضنا له - من بحثنا هذا إلى أن القصة القرآنية وسيلة بيانية من وسائل التبليغ القرآني المتعددة * ، و هي في ذلك - التبليغ - فريدة في مقومات بنائها و في خصائصها ، فهي تصطبغ بطابع الإعجاز لأنها جزء من القرآن .

فتعرض الأحداث فيها عرضا واقعيا مخلصا من كل شائبة تشوب القصص الإنساني من وهم أو خيال فيذكر منها ما كان له أثر في العبرة و يلفظ غيرها مما ليس له دور و عظمي لأن العبرة هي الهدف الأساس من سوق القصص القرآني ، و فيها قال تعالى : " لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون"¹ .

وللأحداث في القصص القرآن خصائصا و غايات سامية تحمل سمو و قدسية الكتاب الذي ذكرت فيه . و كان لعرض الأحداث ببعديها ؛ الزماني و المكاني إعجاز آخر ينضاف إلى إعجاز منهج عرض الأحداث في حد ذاتها .

كما عرضت الشخصية القرآنية ممثلة بأبعادها الإنسانية و ما يعترضها من مشاعر و دواخل و التي تؤثر في مواقفها كل حسب ما ركب عليه من دوافع الإيمان و الكفر، لتكون ما تلة للعيان مثولا حقيقيا ليصح استلهاام العبرة منها .

و تجيء كل هذه المقومات معروضة و فق منهج قصصي قرآني فريد و معجز مدعوما بالمنهج البلاغي و الذي استدللنا به على إعجاز القصة القرآنية حيث وقفنا على مدى مطابقة مقاماتها - القصة القرآنية - الحكيمية لمقتضيات الأحوال .

و وقفنا كذلك على البعد البياني للقصص القرآني - عامة و قصة يوسف خاصة - الممزوج بالبعد الوعظي ، فجمعت بذلك القصة القرآنية بين جمال الأسلوب و رصانته و بين الإقناع الذي يأتي من مطابقة هذا الأسلوب لمقتضيات الأحوال في كل مقامات القصة القرآنية .

1. يوسف، 111 .

وشهدنا أن سورة يوسف هي أحسن القصص لأنها فريدة في شكلها و في طريقة عرضها ،
وإننا وجدناها كذلك لما قلبناها على الوجوه التي درسناها من خلالها .

و نأمل أخيرا أن تكون محاولتنا في الإستدلال بالبلاغة على إعجاز القرآن قد آتت ثمارها لأن
البلاغة العربية نشأت ابتداء و أساسا لهدف واحد و هو التدليل السابق ، و نكون بذلك قد ربطنا
البلاغة العربية بأصلها لأنه قيل: " أشرف ما في العلم أصله " ، وقد عرف أصل البلاغة و هدفها
فعرف تبعاً لذلك شرفها بين العلوم .

قائمة المراجع

1. القرآن الكريم ، برواية حفص عن عاصم.
2. ابن منظور ، لسان العرب ، دار المعارف، القاهرة، مصر ، ت ط، دت .
3. سليمان عشراي ، الخطاب القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، 1998 .
4. سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق ، بيروت، لبنان ، ط8، 1983.
5. عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه و مفهومه، دار الفكر، بيروت ، لبنان، دط ، 1965.
6. خالد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية ، دار الشهاب ، باتنة، الجزائر، دط، دت .
7. مأمون فريز جزار، خصائص القصة الإسلامية، دار المنارة، جدة السعودية ، ط1، 1988.
8. مصطفى عليان، بناء الشخصية في القصة القرآنية، دار البشير، عمان الأردن، ط1، 1992.
9. سمير المرزوقي، جميل شاكر ، مدخل إلى نظرية القصة، الدار التونسية للنشر، دط، دت .
10. عبد الحميد محمد الهاشمي، لمحات نفسية في القرآن الكريم، مكتبة الرحاب، الجزائر، دط، دت .
11. أحمد بهجت، أنبياء الله، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط3، 2000 .
12. ابن القيم الجوزية ، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ، دار البيان الحديث، القاهرة، مصر، ط1، 1423هـ-2002م .
13. أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين، ت، أحمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار عيسى البابي و شركاه، دط، 1971 .
14. أبو يعقوب العسكري، مفتاح العلوم ، ت ، عبد الحميد هنداوي، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1420هـ-2000م .
15. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، دط، 1422هـ-2002م.
16. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ت، محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا لبنان، دط، 1420هـ-1999م .
17. أبو عثمان الجاحظ ، البيان و التبيين ، ت، درويش جويدي ، المكتبة العصرية، صيدا لبنان ، دط، 1423هـ-2003م .
18. أبو عثمان الجاحظ ، الحيوان، ت، عبد السلام هارون، دار مصطفى البابي و أولاده، ط2، 1965.
19. الإمام الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ت، محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا لبنان، دط، 2004.
20. أبو علي بن حسن رشيق القيرواني، ت، محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط5، ، 1401هـ-1981.
21. محمود بن عمر جار الله الزمخشري، أساس البلاغة ، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1992.
22. السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة ، دار الفكر، بيروت، لبنان، دط، 1414هـ-1994م.
23. علي الجارم، مصطفى أمين، البلاغة الواضحة، دار المعارف، مصر، دط، دت .
24. عبد المتعال الصعيدي، البلاغة العالية، علم المعاني، المطبعة النموذجية، مصر، ط2، 1411هـ، 1991م .
25. حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب ، أسسه ، و تطوره إلى القرن السادس الهجري، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، دط ، 1981.

26. عمار ساسي، المدخل إلى النحو و البلاغة في إعجاز القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، عمان الأردن، ط1، 2007 .
27. محمد بدري عبد الجليل ، تصور المقام في البلاغة العربية ، دار المعرفة، مصر، دط، 2005 .
28. أمين أبوليل ، علوم البلاغة، دار البركة عمان ، الأردن، ط1، 2006 .
29. عبد اللطيف شريقي، زبير دراقي، الإحاطة في علوم البلاغة، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، دط، 2004.
30. أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار بن حزم، بيروت ، لبنان، ط1، 2000.
31. فخر الدين محمد بن عمر الرازي، التفسير الكبير ، المطبعة التوفيقية، القاهرة، مصر، دط، 2003.
32. ابن عمر الزمخشري، الكشاف، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1987، ج2 .
33. محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ط1، 1421هـ- 2000 م .
34. عبد الرحمان الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ-1997م .
35. أبو حفص عمر بن علي الدمشقي، اللباب في علوم الكتاب ،ت، الشيخ أحمد عادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1419هـ-1998م .
36. علاء الدين علي بن محمد الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الفكر ، بيروت، لبنان، 1399هـ، 1979م .
37. الصحيح المسبور في التفسير بالمأثور،ت ،حكمت بن بشير بن ياسين ، دار المآثر ، المدنية النبوية ، السعودية، 1420هـ-1993م .
38. أبو محمد مكي بن أبي طالب الأندلسي، الهداية إلى بلوغ النهاية،ت،الشاهد البوشيقي، كلية الشريعة و الدراسات الإسلامية، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة ، ط1، 1429هـ-2008م .
39. القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز،ت، عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ- 2001م.
40. محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط ، ت، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ أحمد محمد عوض ،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413، 1993م.
41. أبو جعفر جرير الطبري ، جامع البيان عن تأويل القرآن ، ت ، عبد الله التركي، دار هجر، مصر، دط، دت .
42. برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي،تفسير نظم الدرر، ت، عبد الرزاق غالب المهدي،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1415هـ-1995م.
43. محمد الألوسي أبو الفضل، تفسير روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دط، دت.
44. مجاهد جبر المخزومي، تفسير مجاهد ، ت، عبد الرحمن الطاهر محمد السورتي، دار المنشورات العلمية ، بيروت، لبنان دط، دت.
45. الإمام أبو محمد إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، تفسير السدي الكبير، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط1، 1414هـ-1993.
46. أبو عبد الله محمد بن أحمد أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،ت، عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت ، لبنان، ط1، 1427، 2006م
47. محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي.
48. محمد أبو زهرة ، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، دط، دت.

49. أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز، ت، أبو عبد الله حسين بن عكاشة، محمد بن مصطفى الكنز، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، مصر 1423هـ-2002م .
50. محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، دط، 1984م.
51. محمد رشيد بن علي رضا، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1990م.
52. سليمة مدلفاف، تحليل الخطاب القصصي في القرآن، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1997.

الفهرس:

	المقدمة
	الفصل الأول : القصة القرآنية والمقام البلاغي .
1	تمهيد :
1	المبحث الأول : مقومات القصة القرآنية و أسس بنائها :
1	أولا : مفهوم القصة القرآنية .
1	1. القصة لغة.
2	2. القصة القرآنية إصطلاحا.
3	ثانيا : مقومات القصة القرآنية.
3	1. الحدث في القصة القرآنية.
3	أ. طبيعة الحدث في القصة القرآنية
4	ب. خصائص الحدث في القصة القرآنية و غاياته.
4	(1) خصائص الحدث في القصة القرآنية.
5	(2) غايات الأحداث في القصص القرآني.
6	ج. زمن الحدث:
9	د. التمظهرات الزمنية في القصة القرآنية.
9	(1) الإضمار.
10	(2) المنحى التزامني .
10	(3) الوقف.
11	(4) الزمن التعاقبي.
12	(5) الإستباق (الإستشراف).
13	(6) الإلحاق (الاستنكار).
14	و. مكان الحدث.
17	ز. وظائف المكان .
17	2. الشخصية في القصة القرآنية.

17	أ. طبيعة الشخصية القرآنية .
18	ب. أبعاد الشخصية القرآنية .
18	1. البعد الجسدي :
20	2. البعد الاجتماعي:
21	3. البعد النفسي :
24	ج. أنواع الشخصيات:
24	1. الشخصيات الرئيسية :
27	2. الشخصيات الثانوية :
28	3. الشخصيات الهامشية:
29	ثالثا: أشكال القصة القرآنية .
29	1. القصة المكتملة :
30	2. القصة المفتوحة :
32	رابعا : طرائق الإبتداء القصص القرآني :
32	1. الإبتداء بملخص للقصة:
33	2. الإبتداء بذكر تمهيد للقصة:
34	3. الإبتداء برؤيا:
35	4. الإبتداء مباشرة في القصة :
38	المبحث الثاني : البلاغة و المقام .
38	1. البلاغة
38	أ. مفهوم البلاغة
38	1. البلاغة لغة
38	2. البلاغة إصطلاحا
40	ب. مراتب البلاغة
41	2.المقام:
41	أ. مفهوم المقام
41	1. المقام لغة

41	2. تطور مفهوم المقام
43	3. المقام إصطلاحا
43	ب. عناصر المقام
43	1. الغرض
44	2. المخاطب
	الفصل الثاني : بلاغة مقامات القص في سورة يوسف عليه السلام
46	تمهيد
46	المبحث الأول : سورة يوسف و مقامها العام .
46	1. التعريف بسورة يوسف عليه السلام.
46	2. المقام العام لقصة يوسف عليه السلام.
48	المبحث الثاني : المقامات القصية الجزئية في قصة يوسف عليه السلام.
48	1. المقام الإستهلاكي (الإبتدائي).
48	أ. المقام الإستهلاكي التمهيدي.
51	ب. المقام الإستهلاكي البدئي.
55	2. مقام الصراع.
55	أ. مقام الصراع العام.
55	ب. أنواع مقامات الصراع.
55	أولاً: مقامات الصراع بين شخصيات القصة.
56	1. مقامات الصراع بين يوسف عليه السلام و إخوته.
65	2. مقامات الصراع بين يوسف عليه السلام و امرأة العزيز و النسوة.
65	2.أ. مقام الصراع بين يوسف عليه السلام و امرأة العزيز.
70	2.ب. مقام الصراع بين يوسف عليه السلام و النسوة.
71	3. مقام الصراع بين يوسف عليه السلام و السيارة.
72	4. مقام الصراع بين يوسف عليه السلام و النظام الحاكم.
74	5. مقامات الصراع بين يعقوب عليه السلام و أبنائه.

82	6. مقام الصراع بين امرأة العزيز و النسوة.
84	ثانيا: مقام الصراع الداخلي (النفسي) للشخصية القرآنية في سورة يوسف عليه السلام.
84	أ. مقام الصراع الداخلي ليوسف عليه السلام.
86	ب. مقام الصراع الداخلي ليعقوب عليه السلام.
87	ثالثا : مقام الصراع بين الإنسان و الطبيعة.
88	3. مقام الإنفراج.
88	أ.مقام الإنفراج العام.
90	ب.مقامات الإنفراج الجزئية.
90	أولا: مقامات الإنفراج بين شخصيات القصة.
90	1. مقامات الإنفراج بين يوسف عليه السلام و إخوته.
91	2. مقامات الإنفراج بين يوسف عليه السلام و امرأة العزيز و النسوة.
94	3. مقامات الإنفراج بين يوسف عليه السلام والسيارة.
95	4. مقامات الإنفراج بين يوسف عليه السلام و النظام الحاكم.
96	5. مقامات الإنفراج بين يعقوب عليه السلام و أبنائه.
97	6. مقامات الإنفراج بين امرأة العزيز و النسوة .
98	ثانيا : مقامات الإنفراج النفسي لشخصيات القصة.
98	1. مقامات الإنفراج النفسي ليوسف عليه السلام.
98	2. مقامات الإنفراج النفسي ليعقوب عليه السلام.
99	ثالثا : مقامات الإنفراج بين الإنسان و الطبيعة.
101	4. مقام العظة.
101	أ. مقام العظة العام.
102	ب. المقامات الوعظية الجزئية.
	الفصل الثالث : دور علوم البلاغة في تجلية مقامات القص في سورة يوسف.
109	تمهيد
109	المبحث الأول : علم المعاني.

109	1. تعريف علم المعاني.
109	2. أبواب علم المعاني.
110	أ. الخبر.
110	(1) تعريف الخبر.
110	(2) أغراض الخبر
110	أ. فائدة الخبر.
110	ب. لازم فائدة الخبر.
111	(3) مقامات التوكيد (أضرب الخبر).
111	أ. مقام خالي الذهن(الضرب الابتدائي).
112	ب. مقام المتردد (الطلي).
112	ج. مقام المنكر (الإنكاري).
114	ب. الإنشاء .
114	(1) أقسام الإنشاء .
114	أ. الإنشاء غير الطلي .
115	ب. الإنشاء الطلي.
117	(1) الأمر .
118	(2) النهي.
120	(3) النداء.
121	(4) الإستفهام.
122	(5) التمني.
123	ج. القصر.
123	د. المساواة و الإيجاز والإطناب.
124	(1) المساواة .
124	(2) الإيجاز.
125	أ. أقسام الإيجاز .

125	أ . 1 إيجاز القصر.
125	أ . 2 إيجاز الحذف.
125	أ . 3. لإيجاز بحذف الأحداث بين المشاهد القصصية.
126	(3) الإطناب.
128	المبحث الثاني : علم البيان .
128	1. تعريف علم البيان.
128	2. مباحث علم البيان.
128	أ. التشبيه
128	ب. المجاز
128	1. تعريف المجاز
129	2. أنواع المجاز .
129	أ. المجاز المفرد المرسل
129	ب. الجاز العقلي.
131	ج. الكناية.
132	المبحث الثالث : علم البديع.
132	1. تعريف علم البديع.
132	2. أقسام علم البديع.
132	أ. المحسنات البديعية المعنوية.
132	(1) الإستطراد .
133	(2) المطابقة .
133	(3) المقابلة.
134	(4) إئتلاف اللفظ مع المعنى.
134	(5) تأكيد المدح بما يشبه الذم.
135	(6) التذييل .
135	(7) تذييل القصة.

136	ب. المحسنات البديعية اللفظية .
136	(1) الجناس .
137	(2) السجع.
138	الخاتمة.
140	قائمة المصادر و المراجع.
143	الفهرس.